الحديث الثانى

عن عمر رضى الله عنه . قال :

(بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ . ذات يوم . إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبته إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد . أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ :

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق فلبثنا مليا . ثم قال : يا عمر . أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

(رواه مسلم بهذا اللفظ . ورواه البخارى عن أبى هريرة بلفظ قريب من هذا)

* * *

عن عمر رضى الله عنه أيضاً (وقد سبقت ترجمته) ولا بأس من ذكر بعض مآثره هنا حتى تكون زيادة لمستزيد وأكثر فائدة لمن يريد الإفادة . لأن حياة عمر رضى الله تعالى عنه قد وقف التاريخ عندها كثيرا بكل الإجلال والإعزاز . لما تحويه من الدروس والعظات والمواقف العظيمة روى البخارى وغيره : أنه استأذن

النبى ﷺ فى العمرة. فقال له: «يا أخىّ أشركنا فى صالح دعواتك ولا تنسنا».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال له: «والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك».

وقال عليه الصلاة والسلام فيه: «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه وأنه ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال».

وروى الشيخان أنه ﷺ قال: «بينما أنا نائم شربت لبنًا حتى أنظر إلى الرى يجرى فى أظفارى. فناولته عمر». قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «العلم». وأنه رآه وعليه قميص يجره. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «الدين».

وروى: أنه رضى الله تعالى عنه ركب فرسا فى بعض الأيام. فانكشفت فخذه. فرأى نصارى نجران على فخذه شامة سوداء. فقالوا: هذا الذى نجد فى كتابنا أنه يخرجنا من أرضنا وكان كذلك فإنه أجلاهم من بلدتهم بعد ذلك.

ولما تمت له البيعة بالخلافة صعد المنبر وقال: «اللهم إنى شديد فلينى. وإنى ضعيف فقونى. وإنى بخيل فسخنى».

وروى عن الأوزاعى رحمه الله تعالى: أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل فرآه طلحة فدخل بيتا. ثم دخل بيتا آخر. فلما أصبح طلحة ذهب إلى دلك البيت. فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة. أعورات عمر تتبع!!؟

وقال الشعرانى فى الطبقات: وكان فى قميصه أربع رقاع بين كتفيه. وكان إزاره مرقوعا بقطعة من جراب وعدوا فى قميصه مرة أربعة عشر رقعة إحداها من أدم أحمر. وكان رضى الله عنه يشتهى الشهوة وثمنها درهم فيؤخرها سنة كاملة ا.هـ.

وعن الحسن: أنه خطب للناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة. وقال أيضًا: إنه كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع.

وكان رضى الله تعالى عنه فى حياته وزهده وتقشفه أكثر الناس شبها بحياة رسول الله ﷺ . فقد روى عن مصعب بن سعد رضى الله تعالى عنه :

أن حفصة (رضى الله تعالى عنها) [1] قالت لعمر : يا أمير المؤمنين . لو لبست ثوبا هو أليين من ثوبك . وأكلت طعامًا هو أطيب من طعامك . فقد وسع الله عليك من الرزق وأكثر عليك من الخير . فقال إنى ساخاصمك إلى نفسك . أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش . فما زال يذكرها حتى أبكاها . فقال لها : أما والله لأشاركنه فى مثل عيشه الشديد لعلى أدرك عيشه الرخى .

وكان رضى الله تعالى عنه أشد الناس خوفا وخشية لله تعالى حتى تمنى أنه لم يكن شيئًا سويا . فقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال :

رأيت والدى أخذ تبنة من الأرض . فقال : ليتنى كنت هذه التبنة . ليتنى لم أخلق . ليت أمى لم تلدنى . ليتنى لم أكن شيئًا مذكورًا . ليتنى كنت نسيا منسيا .

وعن الأحنف رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أحنف من كثر ضحكه قلت هيبته . ومن مزح استخف به . ومن أكثر من شئ عرف به . ومن كثر كلامه كثر سقطه . ومن كثر سقطه قل حياؤه . ومن قل حياؤه قل ورعه . ومن قل ورعه مات قلبه ولما مات رضى الله تعالى عنه قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : والله ما على وجه الأرض رجل أحب إلى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب وكان العباس رضى الله تعالى عنه خليلا له . فلما أصيب جعل يدعو ربه أن يريه إياه فرآه بعد حول وهو يمسح العرق عن وجهه . فقال : ما فعلت؟ قال : هذا أوان فرغت من الحساب إن كان عرشى ليهد لولا أنى لاقيت رءوفا رحيما [2] .

---

(١) هى أم المومنين السيدة حفصة بنت عمر رضى الله عنهما .

(٢) هذه المآثر رواها الشيخ الشبرخيتى فى الفتوحات الوهبية من ص ٦١ – ٦٤ ونقلنا بعضا منها .

رحمك الله يا أمير المؤمنين ورضى عنك وجزاك عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء. أقضيت عاما كاملا تسأل عن نفسك وعن رعيتك. وأنت من أنت فكيف الحال بأولى الأمر من بيننا. نرجو الله تعالى أن يشملهم بعفوه ويعمهم برحمته إن هذا الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه له أهمية كبرى عند المسلمين كونه يتضمن قواعد الإسلام كله. وقد اشتهر عند العلماء بحديث جبريل عليه السلام وشرحه وبيان تفصيلاته كاملا يتضمن عدة مجلدات. لاشتماله على أخطر القضايا الإسلامية: الإيمان والإسلام والإحسان. وكل قضية منها بجزئياتها تستغرق مجلدا كاملا. ولكن المقام يتطلب عرضه فى شرح موجز غير مخل بالمعنى المطلوب ليسهل على المسلم التعرف على ما يتضمنه من قواعد وأهداف فى سهولة ويسر اكتفاء بالإشارة الواضحة إلى جزئياته دون الغوص فى الكثير مما يحويه من مسائل فرعية قد يتعب عوام المسلمين من تحصيلها. وإنما هى موضوع اهتمام العلماء كل فى مجال تخصصه ودراساته. فمن الله تعالى العون والمدد وعليه التوكل والقصد.

- **(قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ)**: قال عمر رضى الله تعالى عنه بينما نحن جلوس أى كنا جماعة من الصحابة الكرام بدليل قوله فى آخر الحديث: «أتاكم يعلمكم دينكم» فلا يظنن أحد أنه يعبر بضمير المتكلم المعظم نفسه. وكان جلوسهم جلوسًا قريبًا مشاهداً عند رسول الله ﷺ وقد أخطأ من قال كان القرب معنويا لا حسيا.

- **(ذات يوم)**: أى فى يوم من الأيام فى ذات مرة. وقد أبهم اليوم إما لنسيانه، أو أبهم ذكره لعدم أهميته.

- **(إذ طلع علينا رجل)**: وقد قال طلع بدل دخل. إشعارا بتعظيمه ورفعة قدره. لأن الرجل الطالع عليهم كان ملكا فى صورة رجل. وهو الأمين جبريل عليه السلام كما ذكر فى آخر الحديث. وفى رواية للبخارى: «إذ أتاه رجل يمشى».

ويرجع السبب فى ورود هذا الحديث إلى ما رواه مسلم فى رواية عمارة بن

القعقاع فعنده فى أوله: «قال رسول الله ﷺ : سلونى فهابوا أن يسألوه. قال: فجاء رجل ... الخ

أى لأنهم كانوا أولا أكثروا المسائل على النبى ﷺ فزجرهم كراهية لما قد يقع من سؤال تعنت ونحوه. فلما امتثلوا قال لهم : سلونى فهابوه وأحجموا عن المسأله. فجاءهم من تعلموا سؤاله.

ومما هو مقرر أن الملك يأتى فى أى صورة. قال السبكى نقلا عن ابن العربى:

للملك أن يتصور فى أى صورة شاء وتجرى عليه أحكامها فحينئذ لا يتكلم إلا بما يليق بتلك الصورة. ومثل ذلك الجنى. فإذا قتلت تلك الصورة التى ظهر بها. مات معها. بخلاف الملك فإنه إذا تمثل بصورة لا تحكم عليه. فإذا تكلم من تلك الصورة تكلم بأى لغة شاء. وإذا قتل بها لا يموت. ا. هـ.

وبما تقرر من أن للملك أن يتصور فى أى صورة شاء يندفع تردد إمام الحرمين فى تمثل الملك هل معناه أن الله أفنى الزائد أو أزاله عنه ثم أعاده إليه؟ وجزم ابن عبد السلام بالإزالة دون الفناء. وقول ابن جنى: الظاهر أن الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى عن الرائى. وقول البلقينى: بالقبض والبسط وذلك أنه يجوز أن يكون أتى بشكله الأصلى من غير فناء ولا إزالة إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل. وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته كالقطن إذا جمع بعد أن كان منتفشا [1]. ا. هـ.

فعلى كل حال إن من خصائص الملائكة. القدرة على التشكل بجميع الأشكال الحسنة. ولا ضرورة ملحة فى معرفة أين يذهب الزائد مادام المعصوم ﷺ لم يخبرنا بذلك كون ذلك أمرا غير وارد فى الأوامر التكليفية. كما أنه لا يصح للعقل أن يذهب بنا إلى حيث يريد فى بحث قضايا هى من صميم وظائف الوحى. وقد سكت عنها الوحى. فلا نتعب عقولنا فيما لا يجدى وما لا يفيد.

ثم يصف لنا أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه حال الملك لحظة قدومه عليهم فيقول:

---

(١) الفتوحات الوهبية ص ٦٤.

- **(شديد بياض الثياب. شديد سواد الشعر. لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد)**: وفى رواية النيسابورى عن أبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما: (أحسن الناس وجها وأطيب الناس ريحا. كأن ثيابه لا يمسها دنس).

لقد طلع عليهم جبريل عليه السلام بهذه الصورة ليوهمهم بأن الرسول ﷺ لا يعرفه. إشفاقًا عليهم وليجذبهم فى شدة انتباه لمعرفة ما يدور بينه وبين الرسول ﷺ من البيان والتعلم والتوجيه.

قال الشبرخيتى رحمه الله تعالى: «فيه دليل على استحباب البياض من الثياب عند لقاء الرؤساء والجلوس فى المحافل لأن مرجع جميع الألوان إليه. وهذا فى غير العيد. وأما فيه. فالجديد ولو من غير البياض أفضل من غيره للقادر عليه لأنه يوم زينة وإظهار للنعمة. وفيه دليل على أن السنة النظافة لخبر «إن الله نظيف يحب النظافة» وقالت عائشة رضى الله عنها «كان النبى ﷺ يحب الثوب النظيف ويكره الثوب الوسخ» ا. هـ.

وقد استحب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبس الثياب البيض للقارئ. وقد استحبه أيضا علماء الشافعية لدخول المسجد ما عدا العيدين كما مر.

وفيه أيضًا التنبيه على استحباب تحسين الشعر بالتسريح والدهن وغيرهما عند الدخول على الأكابر والعلماء وعند دخول المسجد وخاصة شعر اللحية. وبالجملة فيه استحباب تحسين الهيئة وتنظيف الثياب واختيار البيض منها وتطييب الرائحة سيما للعالم والمتعلم. لأنه أتى معلما بدليل قوله ﷺ «أتاكم يعلمكم دينكم» وإن كان ظهر فى صورة متعلم بمقاله وحاله. وفيه رد على من آثر رثاثة الهيئة والملبس.

قال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «لا بأس بلباس شعار العلماء ليعرفوا بذلك فيسألوا. فإنى كنت محرما فأنكرت على جماعة محرمين لا يعرفوننى ما أخلوا به من آداب الطواف. فلم يقبلوا. فلما لبست ثياب الفقهاء وأنكرت عليهم ذلك سمعوا وأطاعوا» وفى مقال ابن عبد السلام اتهام لعلماء

زماننا الذين يؤثرون ارتداء الزى الأفرنكى على رى الشيوخ. وقد ظنوا ذلك تمدنا وحضارة. فأضاعوا بذلك هيبتهم وتوقيرهم عند الناس هذا. ولم يعرفه أحد من الصحابة لمبالغته فى العماية عليهم. إذ هيئته. هيئه حضرى يسكن معهم بالمدينة المنورة. وكلهم عارفون بمن فيها. وسؤال أعرابى من أهل البادية جاهل بالدين وجاهل بآداب مخاطبة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا صريح فى أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم قد رأوه رؤيا عيان.

وما وقع فى رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن غير عمر رضى الله عنه من أنهم سمعوا كلامه ولم يروه. يحمل على أن بعض القوم كان جالسا عنده. وبعضهم كان خارجا عن ذلك المكان فسمعوا من وراء نحو جدار. وذلك جمعا بين الحديثين الصحيحين كما قرره بعض العلماء ومنه تبين لنا، أن رؤيا الملائكة عليهم السلام ممكنة. إلا أنها كرامة يكرم الله بها من شاء من أوليائه. وقد وقع ذلك لجماعة من الصحابة كما قال الإمام الغزالى وغيره.

ولما رأى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما جبريل عليه السلام. قال له النبى ﷺ (لن يراه خلق إلا عمى. إلا أن يكون نبيا. ولكن يكون ذلك آخر عمرك) رواه الحاكم.

وفعلا أعمى الله تعالى ابن عباس رضى الله عنهما فى آخر عمره. فقال رضى الله عنه:

إن يذهب الله من عينىَّ نورهما ففى لسانى وقلبى للهدى نور

والظاهر أن ذلك يتحقق لمن رآه منفردا به كرامة له كما قال ابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى وكذا رأته السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وزيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه وخلق كثير لما جاء فسأل عن الإيمان. ولم يعموا.

- **(حتى جلس إلى النبى ﷺ. فأسند ركبتيه إلى ركبتيه. ووضع كفيه على فخذيه)**: قال الطيبى: حتى جلس. متعلق بمحذوف يدل عليه طلع. أى استأذن ودنا حتى جلس الخ اهـ. فهذا القول صريح فى أنه جلس بين يدى النبى ﷺ وليس

بجانبه. وهى جلسة المتعلم. لأن الجلوس كذلك أقرب للتواضع والأدب. وأبلغ فى الإصغاء وحضور القلب والاستئناس. وهو صريح فى أنه جلس بين يديه لأنه لو جلس بجنبه لم يمكنه إلا إسناد ركبة واحدة. وفيه إشارة إلى أنه ينبغى للمتعلم الجلوس بين يدى شيخه لا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه حيث كان الموضع واسعا. لكن لا يبالغ فى القرب منه. بحيث يسند ركبتيه إليه كما هنا. لأنه إنما فعل ذلك هنا جريا على ما بينهما قبل من مزيد الود والأنس حين يلقى عليه الوحى ولقد بالغ فى القرب حتى وضع كفيه على فخذى النبى ﷺ.

وفى حديث ابن عباس وأبى عامر الأشعرى وأبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهم. قال «ووضع يديه على ركبتى النبى ﷺ».

قال القرطبى رحمه الله تعالى: (وأراد بذلك المبالغة فى تعمية أمره ليقوى الظن أنه من جفاة الأعراب. فصنع صنيعهم لأن الصحابة رضى الله عنهم استنكروا هيئته وجلوسه كما ذكر ا.هـ.

وقال ابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى معللا لذلك أيضًا (جريا على ما بينهما قبل من مزيد الود والأنس حين يلقى عليه الوحى. تنبيها على أنه ينبغى للسائل قوة النفس وفعل ما يمنع عنه كمال التلقى من نحو الالتهاء عما يصدره وللمسئول أن لا يعارضه حينئذ وإن لم يسلك الأدب ظاهرا). فإذا كان جبريل عليه السلام جاء معلما كما أخبر بذلك النبى ﷺ فى آخر الحديث فكيف به يجلس بيد يدى النبى ﷺ على هذه الصورة فى هيئة جلوس المتعلم بين يدى شيخه. وليس فى صورة المعلم الذى جاء ليعلم الناس أمور دينهم؟

ويجاب عنه بأحد أمرين أو بالأمرين معا:

الأول: أنه فعل ذلك مبالغة فى العماية عليهم. حتى يركزوا انتباههم لسماع ما يدور بينه وبين النبى ﷺ، وإلا لهابوه فيقل انتباههم لسماع ما يلقى إليهم.

الثانى: ليعلم الصحابة رضى الله تعالى عنهم ومن سيأتى من بعدهم آداب

المعلم والمتعلم وفى رواية أبى داود وغيره «أنه ﷺ كان يجلس بين أصحابه فيجئ الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل فبنيت له مصطبة من طين حتى يجلس عليها. فجاءه جبريل وهو عليها. فقال السلام عليك يا محمد فرد عليه السلام. فقال أدنو يا محمد قال ادن فما زال يقول أدنو مرارا وهو يقول ادن. ادن حتى وضع يديه على ركبتى النبى ﷺ».

وقد اختلط الأمر على العلامة ابن حجر الهيثمى حين عزى لرواية النسائى أنه خاطبه بقوله السلام عليكم يا محمد بلفظ الجمع. ثم قال وفيه ندب السلام على الواحد بصيغة الجمع وهو زلل فإن رواية النسائى ليس فيها عليكم بلفظ الجمع وإنما وقع ذلك فى رواية القرطبى وقد استنبط منه أنه يسن للداخل أن يعمم بالسلام ثم يخصص من يريد تخصيصه ولقد عقب على ذلك الحافظ ابن حجر العسقلانى بأن الذى وقف عليه من الروايات إنما فيه الإفراد وهو السلام عليك يا محمد (١).

فعلى طالب العلم أن يلتزم الأدب فى حضور شيخه وترك كل ما يمنع عنه كمال التلقى من نحو الالتهاء وغيره. كما أنه يجب على الشيخ أن لا يعارض المتعلم حتى ولو سلك سوء الأدب ظاهرا. لأن مهمته تأديبه وتربيته وتهذيبه قبل أن يلقى عليه العلم فيكون بذلك قد زرع غرسه فى أرض خصبة جيدة.

- **(وقال : يا محمد)** : القائل. هو جبريل عليه السلام. والمنادَى هو سيد الخلق ورسول رب العالمين محمد ﷺ. الذى علمنا ربنا عز وجل بضرورة التزام الأدب فى حضرته وعند سؤاله وعند الجلوس معه. قال الله تعالى ﴿**لا تجعلُوا دُعاء الرَّسُول بينكُمْ كدُعاء بعْضكُمْ بعْضًا**﴾ وتدعونا سورة الحجرات فى صدرها إلى الالتزام بذلك فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لا تُقَدّمُوا بيْن يَدَي اللَّه ورَسُوله واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ سَميعٌ عليمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنُوا لا ترْفَعُوا أَصْواتكُمْ فَوْقَ صَوْت النَّبيّ ولا تَجْهرُوا لَهُ بالْقول كجَهْر بعْضكُمْ لبعض أن**

(١) الفتوحات الوهبية ص ٦٦ باختصار.

﴿تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ولم يناد فى القرآن الكريم إلا بقوله عز وجل «يا أيها النبى» «يا أيها الرسول» ولم يناديه باسمه (يامحمد) كسائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وقد ورد اسمه فى القرآن الكريم على سبيل الرواية ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾.

ولما أقسم الحق عز وجل به أقسم بعمره دون اسمه فقال تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فكل هذا تعليم وتوجيه وتربية للمؤمنين جميعا بالتزام الأدب والتواضع معه ﷺ. وفى ذلك ما يدل على شرفه ﷺ.

فإذا كان هذا هو مقام سيد المرسلين ﷺ فكيف بجبريل عليه السلام - وهو الذى يعلم هذا جيدا - يناديه باسمه على عادة أجلاف العرب من أهل البادية. وهذا أمر مخالف لحرمة ندائه ﷺ باسمه ؟

ويجاب عن ذلك بما يلى :

أولاً: قال بعض العلماء: إن هذا محرم على الآدميين دون الملائكة لأن الخطاب فى الآية مختص بهم فلا يشمل الملائكة إلا بدليل.

ثانيًا: يجوز أن ذلك كان قبل نزول الأمر بحرمة ندائه باسمه الشريف ﷺ.

ثالثًا: أن ذلك كان جريا على عادة العرب من النداء بالاسم غالبا قصدا لمزيد التعمية عليهم. وبذلك ينتفى الإشكال. بل لا إشكال أصلا.

ومنه قد استفيد جواز نداء العالم والرئيس باسمه ولو من المتعلم إن لم تعلم كراهته لذلك. أو لم يكن القصد منه الحط من قدره ومكانته. لأن الشأن فى هؤلاء أن يخاطبوا بالألقاب التى تدل على بيان قدرهم وإمامتهم لمن هم دونهم

(٤- موارد الظمآن).

من المتعلمين وسائر الرعية قال الشيخ الشبشيرى رحمه الله تعالى : (وبما تقرر علم أن نداء غيره ممن يستحق التوقير باسمه ليس بحرام . بل هو خلاف الأولى إلا أن يتأذى به فينبغى تحريمه) .

وقد خاطبه جبريل عليه السلام بهذا الاسم (محمد) دون غيره من الأسماء لأنه أشهرها وأكثرها شيوعا بين الناس جميعا .

- **(أخبرنى عن الإسلام)** : إنه يسأل عن بيان حقيقة الإسلام وماهيته الشرعية . وكذا فى نظائره من السؤال عن الإيمان والإحسان . ويدل على ذلك أنه وقع فى رواية أبى هريرة رضى الله عنه ما الإسلام؟ ما الإيمان؟ ما الإحسان . وهى تدل على أنه إنما سأله عن شرح ماهيتهما لا عن شرح لفظهما لغة . وإلا كان الجواب غير ما ذكر . ولأن (ما) فى أصلها إنما يسأل بها عن الحقائق والماهيات .

سأل رجل آخر عن الله تعالى . فقال له : إن تسأل عن اسمه : فالعزيز الحكيم . وإن تسأل عن صفته : فالرحمن الرحيم . وإن تسأل عن فعله : فخالق المخلوقين . وإن تسأل عن ماهيته . فلا ماهية له نعرفها .

كما أنه لا ضرورة ولا فائدة من سؤاله عن معانى هذه الألفاظ لغة . لأنه تحصيل حاصل . فالسائل والمسئول والحضور يدركون هذا المعنى اللغوى .

هذا . وقد جاء فى رواية مسلم هذه السؤال عن الإسلام أولا ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان . وقيل : إنه بدأ بالسؤال عن الإسلام لأنه الأمر الظاهر وإشعارا بأن أول واجب على المكلف النطق بكلمة الشهادة عند القدرة كما حققه الديوانى . وثنى بالإيمان لأنه الأمر الباطن .

وورد فى رواية البخارى وغيره . السؤال عن الإيمان أولا . قالوا : لأنه الأصل فبدأ به وثنى بالإسلام لأنه يظهر به مصداق الدعوى وثلث بالإحسان لأنه متعلق بهما .

وقد رجح الطيبى ما جاء فى رواية مسلم لما فيها من الترقى فبدأ بالظاهر وترقى إلى الأعلى . ورجح آخرون منهم ابن حجر الهيثمى والشبرخيتى ما جاء فى رواية البخارى وغيره لموافقتها للترتيب القرآنى والسنة ليست إلا بيانا للقرآن .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ .

فهذا محصل ما وجه العلماء به الترتيب الواقع فى الروايتين .

وهناك ترتيب ثالث ورد فى رواية مطر الوراق فقد بدأ بالإسلام وثنى بالإحسان وثلث بالإيمان .

وعلى كل حال إن هذا الاختلاف فى الترتيب لا يضر ومنشؤه كما قرر ابن حجر الهيثمى فى فتح المبين : « أن هذا التقديم والتأخير من الرواة . لأن القصة واحدة اختلفت الرواة فى تأديتها » .

- (**فقال رسول الله ﷺ**) : مجيبا له عن ماهية الإسلام وحقيقته . (**الإسلام**) لغة : عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والإنقياد وترك التمرد والإباء والعناد . ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ .

وشرعا : الانقياد والخضوع لما جاء به الشارع الشريف من الأوامر والنواهى قولا كانت أوفعلا .

وقد بين الإسلام النبى ﷺ ببيان متعلقه . لأن الجالسين يعرفون معناه فقال :

- **(أن تشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمداً رسول الله)** : روى الشيخان عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . والجنة حق . والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

ورويا فى حديث عتبان :

« فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » .

ورويا أيضاً عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال : « كنت رديف النبى ﷺ على حمار . فقال لى :

يا معاذ : أتدرى ما حق الله على العباد . وما حق العباد على الله؟

قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . قلت : يا رسول الله : أفلا أبشر الناس؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا .

ومعنى (لا إله إلا الله) أى لا إله حق أو معبود إلا الله عز وجل . وذلك : لأن لا إله إلا الله . تتكون من نفى وإثبات . نفى استحقاق الإلهية عن غيره تعالى والبراءة من كل معبود سواه قولا وفعلا .

وإثبات استحقاق الإلهية على وجه الكمال لله تعالى .

والنفى يستفاد من (لا) واسمها وخبرها المقدر . والإثبات : مستفاد من الاستثناء . لأن الإثبات بعد النفى المتقدم أبلغ من الإثبات بدونه، وهذه طريقة القرآن الكريم (يقرن بين النفى والإثبات غالبا) كما فى قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألاَّ تعبدُوا إلاَّ إيَّاهُ** ﴾ .

فالنفى المحض ليس توحيداً، والإثبات بدون نفى ليس توحيداً . ولا يكون توحيداً إلا ما تضمنهما .

و(الإله) اسم جنس وضع لكل معبود حقا كان أو باطلا . لأنه مشتق من الإلهية بمعنى العبادة . فالإله بمعنى المألوه . وبعد التعريف . صار علما على الحق تبارك وتعالى ومن عبد شيئًا فقد اتخذه إلها .

ويرى المحققون من العلماء . خطأ من قدر خبر (لا) بكلمة (موجود) أو (ممكن) إذ أن المعنى يكون : ومما لا يوجد ولا يمكن وجود إله آخر .

والصواب : أن يقدر الخبر بكلمة (حق) وهذا هو مدلول النزاع بين الرسل وقومهم فى كون آلهتهم حقا أو باطلا . وتقدير الخبر بموجود أو ممكن لا يفيد ذلك .

ويجوز أن يقدر الخبر بكلمة (معبود) فيكون المعنى :

لا إله معبود إلا الله عز وجل . فينفى بهذا استحقاق العبادة لغير الله عز وجل وللعلماء كلام كثير حول معنى لا إله إلا الله . وما ذكرناه هو المعنى الصحيح والمختار ومعنى (محمد رسول الله) إثبات صحة وصدق محمد ﷺ فى كل ما يبلغه عن الله عز وجل . ولهذا يجب اتباعه والاقتداء به لأنه المثل الكامل والقدوة الطيبة ولنا فيه الأسوة الحسنة صلوات الله وسلامه عليه .

وأعلم أنه لابد من ذكر لفظ (أشهد) بأن يقول : (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله)

وهو ما اعتمده بعض المتأخرين . فلو أسقط لفظ (أشهد) وأتى بلفظ (أعلم) أو أسقط الإثنين معا فقال : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لم يكن مسلما .

وقد استدلوا على ذلك بمثل رواية « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . . . الحديث » .

ويؤيده أيضًا أن الشارع تعبدنا بلفظ (أشهد) فى أداء الشهادة . فلا يكفى أعلم ونحوها وإن رادفت أشهد .

وقال بعض العلماء: لو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. يكون مسلما لأن هذه العبارة متضمنة معنى الشهادة.

واعلم أنه لا يكفى فى الإسلام «أشهد أن لا إله إلا الله» فقط. أو «محمد رسول الله» فقط. بل لابد من الإقرار بهما معا.

قال الشمس الرملى فى شرح المنهاج للنووى:

«ولابد فى صحة الإسلام مطلقا يعنى سواء كان من الكافر الأصلى أو المرتد من الشهادتين ولو بالعجمية وإن أحسن العربية».

وبه قال الإمام الشافعى رضى الله عنه والرافعى والنووى رحمهما الله تعالى بضرورة تكرر لفظ أشهد فى صحة الإسلام. بخلاف التشهد فإنه يكفى. وأن محمدا عبده ورسوله.

ولا يشترط زيادة البراءة من كل دين يخالف دين الإسلام إلا ممن خص رسالة محمد ﷺ بالعرب وحدهم. فإنه يشترط زيادة إقراره بعمومها.

وكذلك من أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة. فلابد له من الاعتراف بما أنكر والتبرى منه لأنه مما يخالف الإسلام.

نعوذ بالله من الشك والشرك والرياء والنفاق ونسأله كمال اليقين وصدق الإيمان.

- **(وتقيم الصلاة)**: وتقيم (بالفتح) معطوف على (تشهد) خلافا لمن زعم رفع تقيم. وما بعده استئنافا فمن قال بالفتح فالإسلام عنده مكون من الشهادتين وما بعدهما من الصلاة والصيام والزكاة والحج. ولا تكفى الشهادتان وحدهما فى إجراء أحكام الإسلام على من نطق بهما مستدلا بما رواه البخارى رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان».

وبما روى في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما. أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ويقيموا الصلاة. ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى».

ومن قال برفع تقيم على الاستئناف. يرى أنه يكفى لإجراء أحكام الإسلام مجرد النطق بالشهادتين. لأن ما بعدهما مكملات للإسلام. والشهادتان هما الأصل والمدخل للإسلام.

أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدا عبده ورسوله. وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه. والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

ولهما أيضًا من حديث عتبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله. يبتغى بذلك وجه الله».

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة». فقال أبو ذر: وإن زنا وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن زنا وإن سرق». قال: وإن زنا وإن سرق؟ حتى قال الثالثة. فقال رسول الله ﷺ: «وإن رنا وإن سرق رغم أنف أبى ذر».

فأهل السلف يقرءون بالفتح على العطف انتصارا لمذهبهم فى مفهوم الإيمان. إذا أنهم يرون الإيمان: تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

وعليه: لا تجرى أحكام الإسلام على الإنسان بمجرد نطقه بالشهادتين. بل لابد من أداء بقية الأركان (الصلاة – الزكاة – الصيام – الحج لمن استطاع إليه سبيلا).

يقول الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجرى فى كتابه «الشريعة» (١):

---

(١) توفى سنة ٣٦٠ هـ.

فإن احتج محتج بالأحاديث التى رويت «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة».

قيل له: هذه كانت قبل نزول الفرائض. على ما تقدم ذكرنا له. وهذا قول علماء المسلمين ممن نعتهم الله عز وجل بالعلم. وكانوا أئمة يقتدى بهم. سوى المرجئة الذين خرجوا عن جملة ما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وقول الأئمة الذين لا يستوحش من ذكرهم فى كل بلد وسنذكر من ذلك ما حضرنا ذكره إن شاء الله تعالى. والله سبحانه وتعالى الموفق لكل رشاد والمعين عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حدثنا أبو بكر عمر بن سعيد القراطيسى قال: حدثنا أبو بكر احمد بن منصور الرَّمادى قال: حدثنا أبو صالح قال: حدثنى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما. فى قول الله عز وجل ﴿ ٤٩ : ٤ **هو الَّذي أَنزَلَ السَّكينَةَ في قُلُوب الْمُؤْمنينَ ليَزْدَادُوا إيمَانًا مَّع إيمَانهمْ** ﴾ قال: إن الله عز وجل بعث نبيه محمدا ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة. فلما صدقوا بها زادهم الصيام. فلما صدقوا به زادهم الزكاة. فلما صدقوا بها زادهم الحج. فلما صدقوا به زادهم الجهاد. ثم أكمل لهم دينهم فقال جل وعلا سبحانه ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعْمَتي ورَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دينًا** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: وكان المشركون والمسلمون يحجون جميعا. فلما نزلت براءة نفى المشركون عن البيت الحرام. وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين. وكان ذلك من تمام النعمة أنزل الله عز وجل ﴿ **الْيَوْمَ يئسَ الَّذينَ كَفَرُوا من دينكُمْ فَلا تخْشَوْهُمْ واخْشَوْن الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نعْمتي ورَضيتُ لَكُمُ الإسْلام دينًا** ﴾.

حدثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد العطار قال: حدثنا أبو يعقوب اسحاق ابن إبراهيم الصفّار قال: حدثنى محمد بن عبد الملك المصيصى ابو عبد الله قال: كنا عند سفيان بن عيينه فى سنة سبعين ومائة فساله رجل عن الإيمان؟

فقال: قول وعمل. قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله. وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه. وأشار بيده. قال رجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده. إن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله. وأنه رسول الله فلما قالوها. عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها. وحسابهم على الله عز وجل. فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم. أمره أن يأمرهم بالصلاة. فأمرهم ففعلوا. فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم. فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم. أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة. فأمرهم ففعلوا. فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم. فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم. ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم. فأمرهم ففعلوا. حتى أتى أحدهم برأس أبيه. فقال: يا رسول الله. هذا رأس شيخ الكافرين. فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول. ولا صلاتهم. ولا هجرتهم. ولا قتالهم. فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم. أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدا. وأن يحلقوا رءوسهم تذللا. ففعلوا. فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول. ولا صلاتهم. ولا هجرتهم. ولا قتلهم آباءهم. فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم. أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها. فأمرهم ففعلوا حتى آتوا بها. قيلها وكثيرها. والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده. قال عز وجل سبحانه وتعالى: قل لهم: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾.

قال سفيان: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرا. ومن تركها كسلا أو تهاونا بها أدبناه. وكان بها عندنا ناقصا. هكذا السنة. أبلغها عني من سألك من الناس. ا. هـ.

وقد ذهب إلى القراءة بالرفع على الإستئناف فريق من العلماء يرون الإيمان: تصديقا وإقرارا فمن صدق وأقر أجريت عليه أحكام الإسلام. والعمل مكمل للإيمان فلا يشترط وجوده لإجراء الأحكام الشرعية.

وقد ترتب على هذا الخلاف الذى وقع حول إعراب «تقيم» خلاف بين الأئمة والعلماء فى الحكم على تارك الصلاة. والآثار التى تترتب على هذا الحكم.

قال الإمام الشوكانى رحمه الله تعالى فى كتابه «نيل الأوطار» (١).

ولا خلاف بين المسلمين فى كفر من ترك الصلاة منكرا لوجوبها. إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو لم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة.

وإن كان تركه لها تكاسلا مع اعتقاده لوجوبها كما هو حال كثير من الناس. فقد اختلف الناس فى ذلك:

فهذبت العترة – الزيدية – الشيعة – والجماهير من السلف والخلف. منهم مالك والشافعى إلى أنه لا يكفر بل يفسق. فإن تاب وإلا قتلناه حدا كالزانى المحصن. ولكنه يقتل بالسيف. وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر. وهو مروى عن على بن أبى طالب عليه السلام. وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل. وبه قال عبد الله بن المبارك وإسحاق بن راهويه وهو وجه لبعض أصحاب الشافعى.

وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزنى صاحب الشافعى إلى أنه لا يكفر ولا يقتل. بل يعزر ويحبس حتى يصلى.

احتج الأولون على عدم الكفر بقول الله عز وجل ﴿**إنّ اللّهَ لا يغْفرُ أن يُشرك به ويَغفرُ ما دُون ذلك لمن يشاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

ثم يقول: واحتجوا على قتله بقوله تعالى ﴿**فإن تابُوا وأَقَامُوا الصّلاة وآتوُا الزّكَاة فَخلُّوا سبيلهم**﴾ [التوبة: ٥] وبقوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

---

(١) جـ ١ ص ٣٤٠، ٣٤١.

لا إله إلا الله. ويقيموا الصلاة. ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها» الحديث متفق عليه. وتأولوا قوله ﷺ «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» وسائر أحاديث الباب على أنه مستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر. وهى القتل. أو أنه محمول على المستحل. أو على أنه قد يؤول به إلى الكفر. أو على أن فعله فعل الكفار.

واحتج أهل القول الثانى بأحاديث الباب [1] واحتج أهل القول الثالث على عدم الكفر بما احتج به أهل القول الأول. وعلى عدم القتل بحديث «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث» وليس فيه الصلاة. والحق: أنه كافر يقتل. أما كفره: فلأن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم. وجعل الحائل بين الرجل وبين جواز إطلاق الإسم عليه هو الصلاة. فتركها مقتض لجواز الإطلاق. ولا يلزمنا شئ من المعارضات التى أوردها الأولون لأنا نقول: لا يمنع أن يكون بعض أنواع الكفر غير مانع من المغفرة واستحقاق الشفاعة. ككفر أهل القبلة ببعض الذنوب التى سماها الشارع كفرا فلا ملجئ إلى التأويلات التى وقع الناس فى مضيقها وأما أنه يقتل فلأن حديث «أمرت أن أقاتل الناس» يقضى بوجوب القتل لاستلزام المقاتلة له. ا. هـ.

وخلاصة القول: أن من ترك الصلاة منكرا لوجوبها. ولم يكن حديث عهد بالإسلام أو لم يبلغه مشروعيتها. فإنه يستتاب. فإن لم يتب قتل كفرا لاحدا. لأنه مرتد لإنكاره أمرا معلوما من الدين بالضرورة. فلا يكفن ولا يغسّل ولا يصلى عليه ولا يورث ولا يرث ولا يدفن فى مقابر المسلمين ويفرق بينه وبين زوجته. وذلك لردته وكفره.

---

(١) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى.

وعن بريدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه الخمسة.

وأما إن ترك الصلاة تكاسلا وتهاونا ففيه أقوال ثلاثة :

الأول : لا يكفر بل يفسق . فيستتاب . فإن لم يتب قتل حدا كالزانى ويعامل معاملة المسلمين .

الثانى : أنه يكفر فيستتاب . فإن لم يتب قتل لكفره ويتربت على ذلك معاملته معاملة المرتد .

الثالث : لا يكفر بل يفسق ويستتاب فإن لم يتب عذر وحبس حتى يعود للقيام بصلاته .

فالصلاة يجب القيام بأدائها منذ البلوغ حتى تصعد الروح لبارئها .

وقد كفر وأضل من يرى سقوط التكليف عن العبد إذا بلغ غاية المحبة فى الله وصفا قلبه واختار الإيمان على الكفر من غير نفاق . كما قال الإمام التفتازانى رحمه الله فى شرح العقائد . وهو ما يدعيه الباطنية ممن يدعون التصوف .

فالصلاة واجبة الأداء ولا تسقط إلا مؤقتا عن النساء حال الحيض أو النفاس وكذا المجنون – غير المتعدى بجنونه – دائم الجنون إلى الموت .

أما الرجال فإنها لا تسقط عنهم أبدا ولكن يرخص التيسيير فى القيام بها لبعض الحالات كقصر الصلاة فى الحرب أو فى السفر وغيرهما كما هو مبين بكتب الفقه فى المذاهب الفقهية المعتد بها .

كما يجب أن تؤدى فى أوقاتها المعلومة وضرورة توفر شروطها وأركانها وسننها مع المحافظة عليها بالإبتعاد عن مبطلاتها .

ولا يجوز تأخيرها عن أول وقتها إلا لعذر مشروع كإنقاذ غريق وإطفاء حريق أو تجهيز ميت خيف انفجاره . فإن هذا معذور عن تأخير الصلاة عن وقتها . ولكن يجب عليه آداؤها فور زوال السبب المرخص له فى التأخير أدرك وقتها أو لم يدركه .

والصلاة فى اللغة هى : الدعاء . وقيل : الدعاء بخير . قال الله تعالى ﴿ **وصلِّ عليهِمْ . إنّ صَلاتك سكَنٌ لَهُمْ** ﴾

أى : ادع لهم يا محمد . فإن دعاءك لهم سكن واستقرار . ودعاءك لهم مجاب وهى شرعا – فى اصطلاح الفقهاء – أقوال وأفعال مخصوصة . مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة .

وسميت بذلك لاشتمالها على الصلاة لغة وهى الدعاء كما أسلفنا والمفروضات العينية من الصلاة خمس فى كل يوم وليلة معلومة من الدين بالضرورة فيكفر جاحدها . ولم تجتمع هذه الخمس لغير نبينا محمد ﷺ ولكنها كانت متفرقة فى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

فالصبح صلاة آدم عليه السلام . والظهر صلاة داود عليه السلام . والعصر صلاة سليمان عليه السلام . والمغرب صلاة يعقوب عليه السلام . والعشاء صلاة يونس عليه السلام . ذكره الإمام الرافعى من علماء الشافعية رحمهم الله تعالى .

وفرضت الصلاة ليلة الإسراء بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر ليلة السابع والعشرين من شهر رجب . ولم تجب صبح يوم تلك الليلة لعدم العلم بكيفيتها وأصل الوجوب كان معلقا على العلم بالكيفية . لذلك لم تجب صلاة صبح ذلك اليوم . وإنما وجبت على وجه الابتداء بالظهر .

وتجب الصلاة على كل مسلم بالغ . عاقل . طاهر من الحدث والنجس .

فلا تجب على الكافر الأصلى ، إنما يطالب المرتد بقضاء ما فاته منها إن عاد إلى الإسلام (١) ولا تجب على الصبى والمجنون والمغمى عليه والسكران . إلا إذا كان المجنون متعديا بجنونه وكذا المغمى عليه والسكران . وذلك تغليظا عليهم .

وللصلاة أحكام وضوابط مفصلة فى كتب الفقهاء ليس هذا مجال ذكرها وقد تحدث العلماء كثيرا فى حكمة مشروعيتها . نذكر من أقوالهم مقالة القسطلانى فى « مراصد الصلاة » فيقول :

---

(١) وهو قول الشافعى وجماعة من السلف .

الحكمة فى فرض الصلاة وتخصيصها بالخمس:

أحدها: أن الأنفس البشرية المقتضية للشهوة. الغفلة والسهو والنسيان والشره فى العمل والفترة عنه. فاقتضت الحكمة أن تذكر نسيانها وتوقظ غفلتها وتقمع شهوتها بقطعها عن عاداتها ومناجاتها الذى كفلها بنعمه وغذاها بجوده وكرمه. ولعلمه بضعف قواها لم يجعل هذه العبادة إلا فى أوقات يكثر الفراغ فيها من أشغال العادات. وهذا هو الحكمة فى تنقيصها من الخمسين.

والوجه الثانى: أن العبد فى هذه الدار يعمل لنجاته فى الدار الأخرى. وهى مشتملة على أهوال ومشاق ومتاعب أمام العبد دونها خمس عقبات:

الأولى: الدنيا وشرورها وآفاتها ومحذوراتها وشواغلها وعلائقها القاطعة عن مزيد السعادة.

الثانية: الموت وما يخشى من فتنه وشدة سكراته. وما يشاهد عنده من الأمور العظام والآلام الجسام.

الثالثة: القبر وضيقته ووحشته وسؤال منكر ونكير. وذلك صعب خطير.

الرابعة: المحشر وهوله وما فيه من الخوف الشديد والجزع الأكيد.

الخامسة: الحساب وما يخشى فيه بعد العتاب من وقوع العقاب.

فكان فعل الصلوات الخمس مسهلا لهذه العقبات محصلا لنيل المسرات فى دار الكرامات. وهى أجل مبانى الإسلام بعد الشهادتين. ومحلها من الدين محل الرأس من الجسد. فكما أنه لا حياة لمن لا رأس له فكذلك لا دين لمن لا صلاة له. ا.هـ.

ولما كان للصلاة هذه المكانة الخطيرة والجليلة فقد خصها العلماء من الفقهاء والمحدثين ورجال الزهد والعبادة والأخلاق بالعديد من المصنفات والكثير من الأبواب والفصول التى تحويها أمهات الكتب وبطون المراجع.

لأنها عماد الدين. من أقامها فقد أقام الدين. ومن هدمها فقد هدم الدين. وهى وصية الأولين للآخرين. ولأنها دليل كمال الإيمان وعنوان اليقين.

وقد روى فى الصحيح «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» لذلك كان نداء العلى الكبير سبحانه وتعالى لعباده فى القرآن الكريم: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[البقرة:٢٣٨].

- **(وتؤتى الزكاة)**: الزكاة هى: الركن الثالث من أركان الإسلام. أوجبها الله سبحانه وتعالى نصيبا مقدرا ومحددا فى مال الأغنياء. يدفعونه عن رضى للفقراء ومن ألحق بهم ممن تجوز عليهم الزكاة. ولا يخفى علينا ما للزكاة من آثار اجتماعية ونفسية وخلقية وسلوكية تربوية تعود على الفرد والمجتمع. لذلك فهى حسية جليلة القدر من حسنات الإسلام. وهبة عظيمة النفع من نعم الله سبحانه عز وجل. خص بها عباده المؤمنين طهره لهم ونماء وبركة لأموالهم أحلقت بالصلاة لاشتراكهما فى الأهمية والخطورة.

فالصلاة صلة روحية بين العبد وربه. والزكاة صلة مادية وروحية وأخلاقية بين الإنسان وأخيه الإنسان. فكلتاهما عبادة وصلة وقربة يتقرب بها العبد إلى خالقه عز وجل ولذلك جاء الحديث عنها فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة. مقرونة بالصلاة فى ثمانية وعشرين موضعا. ولذلك أجريت عليها أحكام الصلاة من حيث فرضيتها ووجوب أدائها لمستحقيها طوعا أو كرها. وكيف يكون التصرف مع من امتنع عن آدائها.

وورد الحديث عنها أيضًا فى القرآن الكريم مفردة دون ذكر الصلاة مذكورة باللفظ الصريح أو بالمعنى. وذلك فى مقام الحث على التطوع بالصدقات أو الوعيد على عدم آدائها أو تفسير معناها أو الوعد بالخير فى الدنيا والآخرة لمن يقوم بدفعها لمستحقيها راضية بها نفسه وكذلك ورد الحديث عنها فى الكثير من الأحاديث الصحيحة.

ولهذا أجمعت الأمة على وجوب فرضيتها. وقتال مانعيها حتى يدفعوها. كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خلافته ووافقه عليه كل أصحاب رسول الله ﷺ. ولذلك حكم بالكفر على منكر فرضيتها.

وشرعت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة. قال العلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى[1]:

«وبدر كانت فى رمضان فى السنة الثانية. وفيها فرض الصوم والزكاة بعد ذلك. والحج بعد ذلك على الصحيح».

ومعنى الزكاة عند أهل اللغة: النماء والزيادة والتطهير. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومعناها فى الشرع: جزء مخصوص يخرج من مال مخصوص على وجه مخصوص[2].

وتجب الزكاة إذا تحقق شروط وجوبها وهى: الإسلام والبلوغ والعقل والملك التام وحولان الحول. وبلوغ النصاب.

فلا تجب على كافر أما المرتد فمختلف فيه. كما لا تجب على الصبى والمجنون. ولكن يخرج عنهما وليهما. ولا تجب من مال الغير كما لا تجب قبل حولان الحول أو بلوغ النصاب.

وفى هذه الشروط نظر وخلاف بين المذاهب الأربعة ليس هذا موضع ذكره وتجب فى الأصناف التالية وهى:

الأنعام (الإبل والبقر والغنم). والحبوب المقتاتة اختيارا. والتمر. والعنب. والنقدان (الذهب والفضة). وعروض التجارة.

وتجب الزكاة فى الأموال إذا اكتمل النصاب وقدره ما يساوى ثمن (٨٦,٧ جراما ذهبا) خالصا أو مشوبا قليلا بالنحاس أو غيره (عيار ٢٣,٥) وحال عليه الحول. ومن الفضة (٢٠٠ درهم) وتجب فى الثمار عند بدو صلاحها. وتجب فى

---

(١) فتح البارى جـ١ ص ٤٣.

(٢) دليل الفالحين جـ٤ ص ٣.

الزروع. عندما يكتمل حصادها ﴿ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وتجب فى الذهب والفضة دون حلى النساء على خلاف فيه بين الفقهاء [١].

وتخرج زكاة الفطر من غالب قوت أهل البلد المقيم فيه وكان عنده قوت يوم وليلة وتجب على رب الأسرة عن نفسه وعمن تلزمه نفقته ومنهم الخادم والأجير المقيم معه دون المقاتل والزكاة المفروضة هى :

أولا : الزكاة المشروعة بشروطها السابقة.

ثانيا : زكاة الفطر فى رمضان.

ثالثا : الزكاة المفروضة نذرا. كم نذر لله تعالى إن تحقق له شئ ما فلله عليه التصدق بكذا من ماله.

رابعا : الكفارات. كمن وجب عليه إطعام ستين مسكينا أو عشرة مساكين كفارة وجبت عليه. عقوبة له عما بدر منه من ارتكاب فعل محرم. كمن جامع زوجته فى نهار رمضان عامدا عالما بالتحريم. أو من حنث فى يمينه وغيرها.

وتدفع الزكاة إلى الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم بشرط أن لا يكون ممن تلزمه نفقته. قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : ٦٠]

ولما كان المال وسائر أنواع الممتلكات من الأمور المحببة للنفس. ويصعب على المرء أن يبذلها أو يبذل منها شيئا. طالبه الشارع الشريف أن يدفعها راضية بها نفسه. لذا كان اللفظ المناسب للطلب هو « تؤتى » لأنه يتضمن فيما يتضمنه من المعانى معنى : الإيثار والأداء والعطف والجود.

---

(١) وتجب فى التبر وفى الحلى المحظور كأوانى الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال. ذكره الغزالى فى الإحياء ١ / ٢١١ ويلحق بذلك ما يتخذ من حلى النساء كمال يحتفظ به. ولم يتخذ للزينة. لأنه فى هذه الحالة قد انتفى غرضه الأصلى وهو الزينة.

وهذا مما يدل على قدر الإعجاز البياني والتشريعي للقرآن الكريم قال تعالى: ﴿ **كلُوا من ثمره إذا أثْمر وآتوا حقَّهُ يوم حصاده** ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال أيضًا سبحانه في سورة النور: ﴿ **وأَقيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاة وأَطيعُوا الرَّسُولَ** ﴾. كما يدل على درجة البلاغة النبوية في قول الرسول ﷺ (وتؤتى الزكاة) وفي حديث آخر (وإيتاء الزكاة).

وأما من لم يؤد الزكاة المفروضة شحا وبخلا وتهاونا. فقد توعده الحكم العدل سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم. فقال في كتابه:

﴿ **وَالَّذينَ يكنزُون الذّهب وَالْفضَّةَ وَلا يُنفقُونها في سبيل اللّه فبَشّرْهُم بعَذاب أَليم * يَوْم يُحمَىٰ عَليْها في نَار جَهنَّم فَتُكْوىٰ بها جباهُهُم وجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَذَا ما كَنَزتُم لأَنفسكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُم تَكْنزُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

يقول الإمام النسفي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية [١]:

وخصت هذه الأعضاء لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا. وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم. أو معناه: يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم. ا.هـ.

ويقول العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيرها [٢]:

أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما كما في قوله ﴿ **ثُمّ صُبُّوا فَوْقَ رأسه من عَذاب الحَميم * ذُقْ إنَّكَ أنت العزيزُ الكَريمُ** ﴾ أي هذا بذاك. وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم. ولهذا يقال: من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله. عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم. عذبوا بها. كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك. كانت يوم القيامة عونا على عذابه أيضًا. في جيدها أي عنقها حبل من مسد أي تجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا.

---

(١) تفسير النسفي: ١٢٥ / ٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: جـ٢ ص ٣٥١، ٣٥٢.

كما أن هذه الأموال. لما كانت أعز الأموال على أربابها. كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة. فيحمى عليها فى نار جهنم. وناهيك بحرها. فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« ما من صاحب ذهب ولا فضة. لا يؤدى منها حقها. إلا إذا كان يوم القيامة. صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم. فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره. كلما بردت أعيدت له. فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله. إما إلى الجنة. وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله. فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حقها. ومن حقها حلبها يوم وردها. إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه باخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها. فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين العباد. فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل: يا رسول الله. فالبقر والغنم؟

قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها. إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها شيئًا ليس منها عفصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها. كلما مر عليه أولاها. رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله. فالخيل؟

قال: الخيل ثلاثة، هى لرجل وزر، وهى لرجل ستر، وهى لرجل آجر.

فأما التى هى له وزر، فرجل ربطها رياء وفخرا ونواء لأهل الإسلام. فهى له وزر.

وأما التى هى له ستر، فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها فهى له ستر.

وأما التى هى له أجر، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو

روضة. فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شئ إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات. وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات. ولا تقطع طولها فاستنت شرفا أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات. ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله تعالى له عدد ما شربت حسنات. قيل: يا رسول الله. فالحمر؟

قال: ما أنزل على فى الحمر إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿**فمن يعْمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرهْ ومن يعْملْ مثقالَ ذرَّةٍ شَراً يَرَهْ**﴾[1] ... رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - شدقه - ثم يقول: أنا مالك. أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية ﴿**ولا تحْسبنَّ الذين يبْخلُون .. الآية**﴾[2]. أما الذين يؤدون زكاة أموالهم. فقد وعدهم الله عز وجل خير الجزاء.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه:

أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله. دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئا. وتقيم الصلاة المكتوبة. وتؤدى الزكاة المفروضة. وتصوم رمضان». قال: والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

فلما ولى. قال النبى ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة. فلينظر إلى هذا» [متفق عليه].

---

(١) القاع: المكان المستوى من الأرض. والقرقر: هو الأملس. والعفصاء: الملتوية القرن والجلحاء: التى يبس لها قرن. والعضباء: المكسورة القرن.

ولا تقطع طولها. الطول: حبل تشد به قائمة الدابة وترسلها ترعى أو تمسك طرفها وترسلها. استنت: جرت بقوة. شرفا: شوطا نحو ميل. النواء: المعاداة.

(٢) الحديث متفق عليه. الشجاع: الحية وقيل الذكر وقيل هو نوع من الحيات. والأقرع منه هو الذى ذهب رأسه منه طول عمره وكثر سمه.

لهذا انتاب أصحاب رسول الله ﷺ خوف عظيم لما نزلت آية الوعيد فعن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ** ﴾ الآية. كبر ذلك على المسلمين. وقالوا: ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده.

فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر واتبعه ثوبان. فأتى النبى ﷺ. فقال: يا نبى الله. إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال رسول الله ﷺ:

«إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم. وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم».

قال: فكبر عمر. ثم قال له النبى ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء. المرأة الصالحة. التى إذا نظر إليها سرته. وإذا أمرها أطاعته. وإذا غاب عنها حفظته»[1].

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى فى التفسير[2]:

(كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال. وكان يفتى بذلك. ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ فى خلافه. فنهاه معاوية فلم ينته. فخشى أن يضر بالناس فى هذا. فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان. وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة. وأنزله بالربذة وحده. وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان. وقد أحضره معاوية رضى الله عنه وهو عنده. هل يوافق عمله قوله. فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه. ثم بعث إليه الذى أتاه بها. فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك. فأخطأت. فهات الذهب. فقال: ويحك إنها خرجت. ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به) ا.هـ.

وهكذا يضع الإسلام الزكاة فى هذه المكانة الخطيرة لأهميتها للفرد والمجتمع

---

(١) تفسير القرآن العظيم: جـ٢ ص ٣٥١ وقال ابن كثير: ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به. وقال الحاكم: صحيح على شرطهما - البخارى ومسلم- ولم يخرجاه.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٣٥٢.

لذا يجب دفع الزكاة إلى مستحقيها رضى الأغنياء أم كرهوا. لأنها حق للفقراء حدده الله سبحانه وتعالى فى أموالهم. فيا سعادة من التزم بتنفيذ ما أمر الله تعالى ويا شقاوة من أعرض عن ذكر الله ومنع زكاة ماله

روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا».

- **(وتصوم رمضان):**

الصيام رابع أركان الإسلام كما ذكر فى هذا الحديث وفى غيره من الأحاديث الأخرى الواردة فى الموضوع الذى نحن بصدده.

وقد ثبت فرضية صيام شهر رمضان بالكتاب والسنة وإجماع الأمة منذ عهد النبوة إلى الآن فمن الكتاب: قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة ١٨٣ - ١٨٥].

ومن السنة: حديث جبريل هذا. وأحاديث الباب غيره كثيرة ومنها حديث ابن عمر رضى الله عنهما «بنى الإسلام على خمس ...» الحديث.

وقد أجمعت الأمة على وجوب صيام شهر رمضان على كل مسلم بالغ عاقل قادر على الصوم ولم يخالف فى ذلك أحد. ويرخص فى الفطر المؤقت أو الدائم لأصحاب الأعذار المنصوص عليها فى الفقه الإسلامى فمن أنكر فرضية

صيامه فهو كافر مرتد ومن ترك صيامه كسلا وتهاونا لزمته توبة نصوح وإعـ صيام ما فات. ويفتى علماء المذهب الحنفى بأن من أفطر يوما من رمضان وهو حر مختار عالم بالتحريم لزمه القضاء والكفارة المغلظة. تغليظا عليه حتى لا يعود لمثلها.

والصيام عند أهل اللغة: هو الإمساك. وشرعا: الإمساك عن كل المفطرات من شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر الصادق حتى غروب الشمس.

أما فى الليل فإنه يباح للمسلم ما منع منه نهاراً من أكل وشرب وجماع.

قال الله تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : ١٨٧]

ويجب على المسلم أن يصون لسانه عن الفحش فى القول. وأن يغض بصره عن الحرام لأن ذلك من آداب الصيام. كما لا يجوز له أن يقضى يومه وليله فى اللهو والعبث بما لا فائدة منه.

ويستحب للصائم أن يشغل وقت فراغه فى الذكر وتلاوة القرآن وحضور مجالس العلم واستذكاره والتطوع بالكثير من الصلاة والصدقات.

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر إمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع شهوته وطعامه من أجلى. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره. وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك ».

- **(وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)**: الحج خامس أركان الإسلام والمتمم له. فرضه الله عز وجل على المستطيع من عباده المسلمين مرة واحدة فى العمر.

ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. ومنكر مشروعيته كافر لإنكاره أمرا معلوما من الدين بالضرورة.

قال الله سبحانه عز وجل: ﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ**﴾ [البقرة:١٩٦]. ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**﴾ [آل عمران:٩٧].

وروى فى الصحيح من حديث عائشة رضى الله عنها: هل على النساء جهاد يا رسول الله؟ قال: (نعم جهاد لا قتال فيه. الحج والعمرة)[1].

فهو صريح فى وجوب الحج والعمرة. يؤكد ذلك زيادة ابن حبان فى روايته: «وتعتمر وتغتسل من الجنابة. وأن تتم الوضوء».

وقد أجمعت الأمة على وجوب الحج. واختلف فى وجوب العمرة. قال الشافعية والحنابلة إنها فرض عين فى العمر مرة واحدة. إلا أن الشافعية قالوا تجب على التراخى.

وقال المالكية والحنفية: إنها سنة مؤكدة فى العمر مرة واحدة وليست فرضا. كما هو مبسوط فى كتب الفقه فى المذاهب الأربعة.

وقد فرض الحج على كل مسلم. بالغ. عاقل. مستطيع. عنده الزاد والراحلة. قادر على السفر وآداء الشعائر وهى نفس شروط وجوب العمرة عند من يرى وجوبها.

والتطوع بالحج أو بالعمرة بعد أداء الفريضة من أعظم القربات وأزكاها. روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال:

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

ورويا عن أبى هريرة أيضًا: سئل رسول الله ﷺ . أى العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «عمرة فى رمضان تعدل حجة».

وروى مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

والحج المبرور هو ما تحقق فيه ما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة: .

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [الآية: ١٩٧].

فمن فقد شرطا من شروط الحج لم يلزمه لفقد أحد شروط وجوبه. ورخص الشارع لمن لم يتحقق فيه شرط القدرة على السفر وأداء المناسك والمتوفى أن يذيب الأول من يحج عنه. وأجاز أن يحج عن الثانى أحد أبنائه أو ممن كنت تلزمه نفقته. ويجوز لهم أن ينيبوا من يحج عنه[١].

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن إمرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت. أفأحج عنها؟ قال: نعم. حجى عنها. أرأيت إن كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ أقضوا الله. فالله أحق بالوفاء».

---

(١) وروى أن الإمام مالك قال: لا يلزم أبناؤه الحج عنه ما لم يوصى بذلك وكان الحج يلزمه فى حياته والله أعلم.

وروى أبو داود وابن ماجة عن ابن عباس رضى الله عنهما:

أن النبى ﷺ سمع رجلا يقول: لبيك عن شبرمة. قال: من شبرمة؟ قال: أخ لى. أو قريب لى- شك من الراوى -. قال: حججت عن نفسك؟ قال: لا. قال: حج عن نفسك. ثم حج عن شبرمة».

اللهم لا تحرمنا من حج بيتك الحرام وزيارة المصطفى ﷺ. آمين.

- **(قال صدقت)**: أى قال السائل صدقت أى قلت الحق فيما أجبت به.

(قال فعجبنا له يسأله ويصدقه): قال عمر رضى الله عنه فعجبنا له أى منه أو لأجله لأنه يسأل ثم يصدق على قول المجيب فكان ذلك منه موضع عجب الصحابة رضى الله عنهم ومثار استغرابهم. ولكن هذا قد زال عنهم بعدما أخبرهم النبى ﷺ فى نهاية الحديث بأن لسائل هو: جبريل عليه السلام. فتبدد بذلك عجبهم واستغرابهم.

وقد أجاب النبى ﷺ عن الإسلام ببيان متعلقه لأمرين:

الأول: أن الصحابة يدركون معنى الإسلام ومفهومه.

الثانى: أن المقصود هو بيان أركانه وما يقوم به لا بيان معناه لوضوحه عندهم والتعبد مطلوب بالقيام بالأركان وليس بتحديد معنى الإسلام.

وتلك هى أول مراتب الإسلام بمعنى الدين ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾.

(قال: فأخبرنى عن الإيمان): قبل أن نذكر ما أجاب به رسول الله ﷺ عن هذا السؤال. يحسن بنا أن نذكر معنى الإيمان عند أهل اللغة وعند أهل العلم من المتكلمين الإسلاميين

فالإيمان لغة: مطلق التصديق. واصطلاحا: اختلف فى معناه الشرعى على أقوال:

الأول: الإيمان هو: التصديق بالقلب فقط. أى قبوله وإذعانه لما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ. ثم ما لوحظ إجمالا: كالملائكة والكتب والرسل. كفى الإيمان به إجمالا. وما لوحظ تفصيلا كجبريل وموسى عليهما

السلام والتوراة. اشترط الإيمان به تفصيلا. حتى إن من لم يصدق بمعين من ذلك. فهو كافر. وهو رأى الأشاعرة والماتريدية من متكلمى أهل السنة.

الثانى: الإيمان هو: التصديق القلبى. ولكن يشترط أن يضم لذلك: إقرار باللسان وعمل بالجوارح فيكفر من أخل بواحد من هذه الثلاثة. ويعامل معاملة الكفار ويستحل دمه وماله، وهو مذهب الخوارج. فلا صغيرة عندهم.

الثالث: الإيمان هو: التصديق القلبى. ويضم إليه على التكميل لا الركنية. الإقرار باللسان والعمل بالجوارح. وهو مذهب المحدثين.

الرابع: الإيمان هو: إقرار باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجنان، وهو رأى بعض السلف، وحكى الإمام الشافعى على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

الخامس: الإيمان هو: التلفظ بالشهادتين، ثم إن طابقه تصديق القلب. فهو آمن ناج وإلا فمخلد فى النار، وهو مذهب الكرامية.

السادس: الإيمان هو: تصديق بالجنان وإقرار باللسان. وهو رأى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وأصحابه وبعض محققى الأشاعرة.

السابع: الإيمان. قول وعمل. وهو رأى المعتزلة.

فهذا كله بالنظر إلى ما عند الله تعالى. أما بالنظر إلى ما عندنا، فالإيمان هو الإقرار فقط فمن أقر. أجريت عليه الأحكام فى الدنيا. ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره. كالسجود لصنم. فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق. فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره. ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر، فبالنظر إلى أنه فعل فعل الكافر. ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

وأثبتت المعتزلة الواسطة. فقالوا: الفاسق. لا مؤمن ولا كافر (القول بالمنزلة بين المنزلتين) والأمر المجمع عليه بين جماعة أهل السنة من المتكلمين والمحدثين والفقهاء، أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصان الأعمال.

روى الآجرى رحمه الله تعالى فى كتاب « الشريعة » أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال فى قول الله تعالى ﴿ **هُو الَّذى أَنزل السَّكينة فى قُلُوب المؤْمنين لِيزْدَادُوا إِيمانًا مع إِيمانهِمْ** ﴾.

قال : إن الله عز وجل بعث نبيه محمدا ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله فلما صدق بها المؤمنون . زادهم الصلاة . فلما صدقوا بها، زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها . زادهم الحج، فلما صدقوا به، زادهم الجهاد . ثم أكمل لهم دينهم فقال جل وعلا سبحانه ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُم وَأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نعْمَتِى وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلام دِينًا** ﴾ ا.هـ.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال :

قال الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حيث يذكرنى، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا، وإذا أقبل يمشى أقبلت إليه أهرول » متفق عليه واللفظ لمسلم.

فكلما يزداد عمل العبد يزداد إيمانه . وكلما ازداد إيمانه ازداد قربا ومحبة من الله عز وجل، وروى الآجرى[1] بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال :

« إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر . صقل منه قلبه فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى قال الله عز وجل ﴿ **٨٣ : ١٤ كلاَّ بلْ ران علىٰ قُلُوبهم مَّا كانُوا يَكْسبُونَ** ﴾.

وقد ثار جدل كبير بين العلماء حول تحديد مدى العلاقة بين كل من الإيمان والإسلام هل هما متغايران؟ أم أنهما مترادفان؟ أم أن أحدهما مندرج فى معنى الآخر؟ ففى القضية ثلاثة أقوال :

---

(١) الشريعة : ١١١ .

الأول: الإيما والإسلام متغايران. قال الله تعالى:
﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

الثاني: أنهما إسمان لمسمى واحد فهما مترادفان. فالإيمان هو الإسلام. والإسلام هو الإيمان ولكن هذا الرأى مردود عليه. لأنه يلزم عليه نقل أحدهما من معناه اللغوى إلى معنى آخر شرعى، والنقل خلاف الأصل، فلا يصار إليه بغير دليل، بل الدليل على خلافه كما ورد فى القرآن و السنة.

الثالث: أنهما متغايران معنى ولكنهما لا ينفصلان. لأن بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان فى مصدق بقلبه آت بالأعمال الشرعية. وينفرد الإيمان فى مصدق بقلبه غير آت بالأعمال الشرعية.

فكل مسلم بهذا المعنى مؤمن. ولا عكس. لاشتراط الإيمان لصحة الأعمال الشرعية، ولكن الأعمال الشرعية لا تشترط لصحة الإيمان، خلافا للمعتزلة الذين قالوا: الإيمان قول وعمل.

يقول العلامة ابن رجب رحمه الله تعالى فى شرح هذا الحديث:

ومن هنا قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم. فإن من حقق الإيمان ورسخ فى قلبه قام بأعمال الإسلام كما قال ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله. وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب».

فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح فى أعمال الإسلام. وليس كل مسلم مؤمنا فإنه قد يكون الإيمان ضعيفا فلا يتحقق القلب به تحقيقا تاما مع عمل جوارحه أعمال الإسلام فيكون مسلما. وليس بمؤمن الإيمان التام. كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الآية. فلم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين. وهو قول ابن عباس وغيره. بل كان إيمانهم ضعيفا. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ الآية. يعنى لا ينقصكم من أجورها. فدل على أن

معهم من الإيمان ما يقبل به أعمالهم. وكذلك قول النبى ﷺ لسعد ابن أبى وقاص لما قال له : لم تعطى فلانا وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ : أو مسلم .

يشير إلى أنه لم يتحقق مقام الإيمان فإنما هو فى مقام الإسلام الظاهر. ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضًا. لكن اسم الإيمان ينفى عمن ترك شيئا من واجباته. كما فى قوله «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» وقد اختلف أهل السنة هل يسمى مؤمنا ناقص الإيمان. أو يقال ليس بمؤمن؟ لكنه مسلم على قولين وهما روايتان عن أحمد، وأما اسم الإسلام فلا ينتفى بانتفاء بعض واجبته أو انتهاك بعض محرماته. وإنما ينفى بالإتيان بما ينافيه بالكلية.

ولا يعرف فى السنة الصحيحة نفى الإسلام عمن ترك شيئا من واجباته. كما ينفى الإيمان عمن ترك شيئا من واجباته. وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات وإطلاق النفاق أيضًا (١) .

وقد اختلف العلماء: هل يسمى مرتكب الكبائر كافرا كفرا صغيرا أو منافقا النفاق الأصغر ولا أعلم أن أحدا منهم أجاز إطلاق نفى اسم الإسلام عنه إلا أنه روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: ما تارك الزكاة بمسلم. ويحتمل أنه كان يراه كافرا بذلك خارجا عن الإسلام وكذلك روى عن عمر فيمن تمكن من الحج ولم يحج. أنهم ليسوا بمسلمين. والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم، ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية بقوله: لم يدخلوا فى الإسلام بعد، فهم مستمرون على كتابيتهم.

وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينبغى إلا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح دخل فيه الإيمان كله من

---

(١) لذلك يكفر أتباع مدرسة الحنابلة من المعاصرين تارك الصلاة كفرا يخرجه من الملة عند البعض ولا يخرج من الملة عند الآخرين كونهم يشترطون العمل لصحة الإيمان.

التصديق وغيره كما سبق فى حديث عمرو بن عنبسة [1]. وخرج النسائى من حديث عبيد بن مالك. أن النبى ﷺ بعث سرية فغارت على قوم، فقال رجل منهم: إنى مسلم. فقتله رجل من السرية. فنمى الحديث إلى رسول الله ﷺ. فقال فيه قولا شديدا. فقال الرجل: إنما قالها تعوّذا من القتل. فقال النبى ﷺ «إن الله أبى على أن أقتل مؤمنا» ثلاث مرات. فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة لم يصر من قال أنا مسلم مؤمنا بمجرد هذا القول. وقد أخبر الله تعالى عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وأخبر عن يوسف عليه السلام أنه دعا بأن يموت على الإسلام. وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل فى الإيمان من التصديق.

وفى سنن ابن ماجة عن عدى بن حاتم قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عدى أسلم تسلم. قلت: وما الإسلام؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله. وتشهد أنى رسول الله. وتؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها وحلوها ومرها».

فهذا نص فى أن الإيمان بالقدر من الإسلام. ثم إن الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاع وليس المراد الإتيان بلفظهما دون التصديق بهما. فعلم أن التصديق بهما داخل فى الإسلام وقد فسر الإسلام المذكور فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ بالتوحيد والتصديق طائفة من السلف، منهم محمد ابن جعفر بن الزبير، وأما إذا نفى الإيمان عن أحد وأثبت له الإسلام كالأعراب الذين أخبر الله عنهم، فأنه ينتفى عنهم رسوخ الإيمان فى القلب، وتثبت لهم

---

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده عن عمرو بن عنبسة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله ما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك لله. وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأى الأعمال أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: أن تهجر السوء. قال: فأى الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد»

وهكذا جعل النبى ﷺ الإيمان أفضل الإسلام وادخل فيه الأعمال.

المشاركة فى أعمال الإسلام الظاهرة مع نوع إيمان يصحح لهم العمل إذ لولا هذا القدر من الإيمان لم يكونوا مسلمين. وإنما نفى عنهم الإيمان لانتفاء ذوق حقائقه ونقص بعض واجباته، وهذا مبنى على أن التصديق القائم بالقلوب يتفاضل. وهذا هو الصحيح وهو أصح الروايتين عن أبى عبد الله بن أحمد بن حنبل. فإن إيمان الصديقين الذين يتجلى الغيب لقلوبهم يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك، ولهذا جعل النبى ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين ومن هنا قال بعضهم: ما سبقكم أبو بكر رضى الله عنه بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشئ وقر فى صدره. وسئل ابن عمر رضى الله عنهما. هل كانت الصحابة رضى الله عنهم يضحكون؟ فقال: نعم وإن الإيمان فى قلوبهم أمثال الجبال.

فأين هذا ممن الإيمان فى قلبه ما يزن ذرة أو شعيرة كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار فهؤلاء يصح أن يقال لم يدخل الإيمان فى قلوبهم لضعفه عندهم. وهذه المسائل: أعنى مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جدا. فإن الله عز وجل علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار. والاختلاف فى مسمياتها أول اختلاف وقع فى هذه الأمة؛ وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية وأدخلوهم فى دائرة الكفر وعاملوهم معاملة الكفار واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم؛ ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم: (إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان) (١).

وبعد هذا العرض الموجز لما دار بين العلماء من أقوال حول قضية الإيمان يحسن بنا أن نعود إلى ما أجاب به الرسول ﷺ السائل عن الإيمان.

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٣٥ - ٣٨.

- **(قال أن تؤمن)** : فسر الرسول ﷺ الإيمان بمتعلقاته. ولم يفسره بلفظه ولكن أعاد اللفظ بقوله (أن تؤمن) لأن معنى اللفظ كان معروفا عندهم وغير خفى على أحد منهم فى أنه مطلق التصديق كما سبق ذكره.

ومعنى التصديق به أى اعتقاد أنه حق وصدق كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ وهو ما يتفرع عنه أمور كثيرة هى حاصل ما فى كتب الكلاميين والمحدثين والفقهاء. فاكتفى بالإجمال وهو أن يقر بلا إله إلا الله محمد رسول الله إقرارا مطابقا لما استقر فى قلبه من الإيمان وصدق الاستسلام والانقياد لله عز وجل.

(بالله) : تؤمن بان الله عز وجل واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى أفعاله. لا شريك له فى ملكه، ولا ينازعه أحد فى سلطانه، ولا يتساوى معه أحد فى العبادة، فهو المعبود الذى يتقرب إليه العباد بالطاعة، وهو الغنى عن عباده وهم الفقراء إليه. الخلق خلقه وكل ماعداه ملكه وخاضع لجبروته وسلطانه وعظمته. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. ولقد كفر من اتخذ معه إلها. وجحد وأمعن فى الكفر من اتخد له ولدا سبحانه وتعالى أمرنا أن نؤمن بكل ما أخبر به فى كتابه أو فى سنة نبيه ﷺ عن ذاته وكل ما يتجلى به من صفات الجمال والكمال والجلال وأن ننزهه عن كل نقص لأنه الله نؤمن بذلك إجمالا فيما جاء إجمالا. وتفصيلا فيما ورد تفصيلا. بعيدا عن جحود الملاحدة وكفريات المشركين والكافرين والزنادقة وتأويلات المبتدعة والمضلين من الفلاسفة والمتكلمين. لأنهم أهملوا النص واتبعوا الهوى والشيطان. وظنوا أن ما ذهبت إليه عقولهم الضالة هو الحق الذى يجب على الخلق اتباعه.

ولقد عصم الله عز وجل جماعة أهل السنة فصدقوا بما نزل وآمنوا بما ورد. وكبحوا جماح العقل وقالوا له ليس هذا مجال عملك. وإنما هو طريق الوحى ومجاله، فأحسنوا التلقى عن الله تعالى وعن المصطفى ﷺ. فسعدوا وأسعدوا من سلك طريقهم والتزم منهجهم.

يقول إمام أهل السنة وشيخ طريقتهم: أبو الحسن الأشعرى رحمه الله تعالى مفسرا وحدانية الذات فى كتابه «مقالات الإسلاميين»:

«إن الله واحد أحد. ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح. ولا جثة ولا صورة. ولا لحم ولا دم ولا شخص. ولا جوهر ولا عرض. ولا بذى لون ولا طعم. ولا رائحة ولا محسة. ولا بذى حرارة ولا برودة. ولا رطوبة ولا يبوسة. ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق. ولا بذى أبعاض أو أجزاء. ولا جوارح ولا أعضاء. وليس بذى جهات. ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف. ولا يحيط به مكان. ولا يجرى عليه زمان. ولا تجور عليه المماسة أو العزلة. ولا الحلول فى الأماكن. ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم. ولا يوصف بأنه متناه. ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود. ولا والد ولا مولود. لا تدركه الحواس. ولا يقاس بالناس. ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه. ولا تجرى عليه الآفات. ولا تحل به العاهات. وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير شبيه له.

ولم يزل أولا سابقا متقدما للحادثات. موجودا قبل المخلوقات. ولم يزل حيا قادرا. ولا تحيط به الأوهام. شئ لا كالأشياء. عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء. وأنه القديم وحده ولا إله سواه. ولا شريك له فى ملكه. ولا وزير له فى سلطانه. ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سبق. وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ولا بأصعب عليه منه. ولا يجوز عليه احتراز المنافع ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات. ولا يصل إليه الأذى والآلام. ليس بذى غاية فيتناهى. ولا يجوز عليه الفناء. ولا يلحقه العجز والنقص. تقدس عن ملامسة النساء. وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء[1]. ا.هـ.

فهذا هو ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم ومن اتبعهم من الأئمة الأعلام والعلماء العاملين الذين لم يلوثوا عقولهم بنزغات الشيطان ومهلكات الفاسقين والملحدين والزنادقة وسقطات المبتدعة وأصحاب الأهواء.

(١) نقلا من كتاب رسول الله فى القرآن الكريم: ص ٥٣.

فأما المتشابه من القرآن الكريم فهو على نوعين: لفظى ومعنوى.

فأما المتشابه اللفظى فهو هذه الحروف التى بدئت بها بعض السور كقوله تعالى: آلم. آلمر. كهيعص. حم. ق. ن.

والمتشابه المعنوى كقوله تعالى: ﴿ **يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾، ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾، ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾.

فالسلف: يفوضون العلم بها إلى الله تعالى. ويقولون: نؤمن بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل.

والخلف: يؤولون. ولا يشبهون ولا يمثلون ولا يعطلون. فيؤولون اليد بمعنى القدرة. والوجه بمعنى الذات. واستوى بمعنى استولى وملك فالسلف والخلف متفقون على الإيمان بالمتشابه بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل. ولكن الخلف يؤولون بقصد تنزيه الله عز وجل عن الشبيه والمثيل وفى حدود ما تسمح به لغة العرب والسلف لا يرون ذلك جائزا.

يروى الشيخ الباجورى فى حاشيته على الجوهرة:

«سأل رجل الإمام مالكا عن قوله تعالى ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ فأطرق رأسه مليا ثم قال: الاستواء معلوم. والكيف مجهول. والإيمان به واجب. والسؤال عنه بدعة. وما أظنك إلا ضالا .. فأمر به فأخرج».

وسأل الزمخشرى الإمام الغزالى عن الآية المذكورة فأجابه بقوله:

إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينيه. فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف. وهو مقدس عن ذلك. ثم جعل يقول:

قل لمن يفهم عنى ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف أباك ولا تد ... رك من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدرى صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح فى جوهرها ... هل تراها فترى كيف تجول

وكـذا الأنفـاس هل تحـصـرها ... لا ولا تدرى مـتى عنك تزول
أين منك العـقل والفـهم إذا ... غلب النوم فـقل لى يا جـهـول
أنت أكل الخـبـز لا تعـرفـه ... كيف يجرى منك أم كيف تبول
فـإذا كـانت طواياك التى ... بين جنبيك كـذا فـيـها ضلول
كيف تدرى من على العرش استوى ... لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى الرب أم كيف يرى ... فلعـمـرى ليس ذا إلا فـضـول
فـهـو لا أين ولا كـيف له ... وهو رب الكيف والكيف يحول
وهو فـوق الفـوق لا فـوق له ... وهو فى كل النواحى لا يزول
جل ذاتا وصـفـات وسـمـا ... وتعـالى قـدره عـمـا تقـول

ولخطورة البحث فى مثل هذه الأمور ترك الإمام أبو حنيفة علم الكلام إلى علم الفقه خوف الزلل فسأله رجل عن ذلك فقال رضى الله عنه:

«إن الخطأ فى العقيدة يرمى صاحبه بالكفر. أما الخطأ فى الفقه فإن صاحبه يرمى بالمخالفة» وقد أنكر العلماء القول بالحلول والاتحاد وكفروا من يقول به لأن الله تعالى لا يحل فى جسم ولا يحل فيه جسم وتلك عقيدة باطلة نقلها أناس زنادقة من عقائد وأديان وثنية وشركية وحاولوا إلصاقها بالعقيدة الإسلامية. ولكن تصدى لها الأئمة الأعلام ممن ورثوا العلم واتبعوه بالعمل الخالص لله تعالى.

ولم يقل بالحلول والاتحاد إلا الباطنية الزنادقة الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر. ولقد اتهم البعض الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى بأنه يقول بالحلول والاتحاد. ولكن الواقع أن الشيخ ابن عربى برئ من هذا الاتهام.

قال فى الفتوحات المكية ما نصه:

«وأعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم. أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شئ. وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها. وإنما كان القمر مجلاها فكذلك العبد ليس فيه شئ من خالقه ولا حل فيه».

وقال رضى الله عنه:

ودع مقالة قوم قال عالمهم بأنه بالإله الواحد اتحدا
الاتحاد محال لا يقول به إلا جهول به عن عقله شردا
وعن شريعته وعن حقيقته فاعبد إلهك لا تشرك به أحدا

وأذكر وأنا طالب بكلية أصول الدين، كان يحاضرنا أستاذ فى الفلسفة الإسلامية، وكان الحديث عن فلسفة ابن عربى. فاتهم المحاضر ابن عربى بالقول بالحلول والاتحاد نقلا عن علماء ومستشرقين هاجموا ابن عربى لنفس السبب. فقام زميل لنا أفغانى الجنسية ورد على الأستاذ بقوله إن هذا الكلام لظلم لعالم مسلم وصوفى كبير لا يقول بالحلول والاتحاد ثم أورد الطالب هذه الأبيات الثلاثة. فشكك المحاضر فى صحة نسبتها لابن عربى. فقلت فى نفسى يا سبحان الله. لماذا نقبل التشكيك فى أعلام أمتنا ونرد مقالتهم انتصارا لرأى أعدائنا؟ وقد بكيت عندما رأيت بعد خمس عشرة سنة كتاب اليواقيت والجواهر وقرأت فى مقدمته للشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه مقالا منه:

كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك. وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراتبه. وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة. وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه.

ثم قال: كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ أبو طاهر المغربى نزيل مكة المشرفة. ثم أخرج لى نسخة الفتوحات التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة قونية. فلم أر فيها شيئا مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات.

ويقول أيضاً فى كتاب «لواقح الأنوار القدسية»:

وقد توقفت حال اختصار الفتوحات المكية فى مواضع كثيرة. لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة. فحذفتها من هذا المختصر. وكنت أظن المواضع التى حذفتها ثابتة عن الشيخ محيى الدين. حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين المدنى (المتوفى سنة ٩٥٥ هـ) فذاكرته فى ذلك. فاخرج لى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية. فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته. فعلمت أن النسخ

التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع له فى كتاب النصوص [1] وغيره».

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى فى (باب ١٩٩ فتوحات):

«القديم لا يكون قط محلا للحوادث. ولا يكون حالا فى المحدث. وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ربط إضافة وحكم. لا ربط وجود عين بعين. فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبدا» وقال ايضا: «ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد. وما قال بالحلول إلا من دينه معلول».

بهذا تثبت لنا براءة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى من تهمة ألصقها وزيفها عليه حساده وأعداؤه. وإن شئت قلت زيفها الحاقدون على أهل السنة والجماعة حتى يضربوا عصفورين بحجر. ضرب الشيخ واتهامه فى عقيدته. أو إفساد عقيدة أتباعه وأحبابه الذين اتخذوا مما كتب وصنف، تشكيل عقيدتهم وطريقة عبادتهم لله عز وجل.

فالقول بالحلول أو بالإتحاد قول باطل لا يؤمن به إلا كل زنديق وكل جاهل بالعقيدة الصحيحة فى دين محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾.

وقال سبحانه: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾.

---

(١) أذكر أنه فى سنة ١٩٧٨م قدم إلى زميل كريم كتاب فصوص الحكم لابن عربى. وقال لى: إن جارا له بالقاهرة أعاره له ليقرأه. ولكنه لم يوفق كثيرا فى قراءته. فرأى أن يعيره لى لقراءته وما أن قرأته مرة حتى وجدت نفسى محتاجا لقراءته مرة أخرى بطمأنينة فأعدت قراءته. ورأيت فيه مقالات مدسوسة على الشيخ محيى الدين لعدة أمور: الأول: أسلوب الكتابة لا يتوافق مع أسلوب ابن عربى.

الثانى: بعض التواريخ الواردة بالكتاب غير صحيحة ويكذبها التاريخ العام للمسلمين.

الثالث: وهو الأهم أن المقالات المدسوسة تحدم الفكر البهائى فصارحت صديقى بذلك فأرجع الكتاب لصاحبه. وبعد مرور سبع سنوات تقريبا أخبرنى صديقى أن جاره هذا الذى أعاره له بأنه بهائى العقيدة.

وقال عز وجل: ﴿ **لَيس كَمثْله شَئ ۖ وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ** ﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلله الأسْماءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا وذَرُوا الَّذين يُلْحدُون في أسْمائه سيُجْزوْن ما كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

فالله سبحانه وتعالى واحد فى ألوهيته، واحد فى ربوبيته، واحد فى صفاته وأفعاله. نؤمن بكل ما قاله عن نفسه فى كتابه العزيز وبكل ما قاله رسول الله ﷺ عن ربه بدون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل أو تأويل فاسد. وتلك عقيدة أهل السنة سلفهم وخلفهم ولذا قالوا: إن طريقة السلف أسلم. وطريقة الخلف أحكم اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، لهذا وجب أن لا نتوجه بالعبادة إلا لله عز وجل لا لنبى مرسل ولا لملك مقرب. فلا يعبد أى مخلوق مهما كانت رتبته بأى شئ من ألوان العبادة التى تستحق لله عز وجل، كالدعاء والرجاء والخوف والإنابة والاستعانة والاستغاثة والطلب، والنذر والذبح .. الخ ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيعْبُدُونِ** ﴾.

والعقيدة الإسلامية الصحيحة تربى فى الفرد السلوك القويم الذى تظهر آثاره فيما يلى:

أولا: يشعر المسلم بأنه على قدم المساواة مع غيره من الناس، فينطلق فى الكون كله، ولن يكون ضيق النظر محدود التصور، لأنه يعلم أن الكون كله لله. وقد استخلفه الله فيه، ويفقد هذا الشعور الفرد الملحد والمشرك. لأن عقيدة كل منهم لا تستطيع أن تخلق فيه الشعور بالمساواة بين الناس.

ثانيا: إن عقيدة التوحيد تخلق فى المسلم عزة النفس، لأنه لا يخاف إلا الله ولا يخضع ولا يحنى رأسه إلا لله عز وجل ﴿ **وَلله العزَّةُ وَلرسُوله وللمُؤْمنين** ﴾.

ثالثا: إن عقيدة التوحيد تربى المسلم على خلق التواضع فلا يكون بطرا ولا متكبرا. لأنه يؤمن بالله القوى القاهر. فهو يعرف مكانه فى مقام العبودية والتذلل لخالقه فيتخذ من التواضع خُلقًا يتحلى به.

رابعا: إن عقيدة التوحيد توجد فى المسلم الإدراك عن يقين بأن النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة لا يكون إلا فى تزكية النفس والعمل الصالح. فيحيا العبد دائماً فى رقابة الله عز وجل، فيتجه بصدق العمل وأخلصه لله عز وجل ولا فرق فى ذلك بين العمل من أجل الدنيا أو من أجل الآخرة.

خامسا: إن عقيدة التوحيد تقتل فى المسلم روح اليأس والقنوط والضجر والملل، لأنه يعلم بيقين أن مقاليد الأمور بيد الله عز وجل وأن خزائنه لا تنفد. وكل ما يحدث له أو لغيره فهو بتقدير الله العلى الكبير، فيعلم من خلال ذلك أن مختلف شئونه فى يد الحاكم العادل، عند ذلك تسكن نفسه ويطمئن قلبه فيرضى بما قسم الله له فلا يكون انطوائيا ولا سلبيا حتى لا يجنى على نفسه بارتكاب جريمة الانتحار مثل ما يحدث فى المجتمعات الكافرة فى هذه الأيام.

سادسا: إن عقيدة التوحيد تربى فى العبد قوة العزم والإقدام والصبر والشجاعة والثبات والتوكل. وتنزع من نفسه روح الإنهزامية والخنوع والتواكل والضعف والخوف من المخلوقين مثله.

سابعا: إن عقيدة التوحيد تربى فى الإنسان روح الترفع عن الدنايا. والقناعة والاستغناء بالله عز وجل عن غيره، فيطهر قلبه من أدران الطمع والجشع والحسد والدناءة واللؤم والخسة والنذالة وما إليها من قبيح الصفات المنتشرة فى المجتمعات الكافرة.

ثامنا: إن عقيدة التوحيد تربى فى الإنسان، ضرورة الالتزام بالتقيد بالمنهج الإلهى كما جاء فى القرآن والسنة، فيقبل على فعل ما أمر به من واجبات ومستحبات، ويبتعد عن كل ما نهى عنه من فعل المحرمات والمكروهات وكل ما فيه شبهة.

ولن تجد هذا فى المجتمعات التى لا تدين بالإسلام، ولكنا نجد فيها من يرتكب الفواحش والرزائل وكافة الملذات البهيمية والشهوات التى تصنعها لهم أهواؤهم وشياطينهم وذلك هو الخسران المبين.

تلك كانت بعض الآثار التربوية العظيمة التى تصنعها العقيدة الإسلامية الصحيحة فى نفوس وسلوكيات من يؤمن بالله عز وجل كما جاء فى الكتاب والسنة.

- (**وملائكتـــــــــه**): الملائكة جمع ملك على غير قياس أهل اللغة.

والملائكة هم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وهم أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل بجميع الأشكال الحسنة. وهم رسل الله إلى خلقه والمكلفون بشئون العباد والمتصرفون فيهم بأمر الله عز وجل ووفق مشيئته ومراده سبحانه وتعالى، فهم الأمناء، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة. ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون.

روى مسلم من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، أن النبى ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». أى من طين كما ورد فى القرآن الكريم.

فيجب علينا الإيمان بهم، والتصديق بأنهم خلق من خلق الله عز وجل لا ينازعونه فى الأولوهية ولا يستحقون أى شئ من أنواع العبادة التى تجب لله عز وجل، بل تستحب الصلاة عليهم لأنهم خلق من خلق الله الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه.

ولقد وهم من عبدوهم من دون الله عز وجل وقالوا إن الملائكة بنات الله. تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا.

لقد ادعى اليهود هذا فكذبوا وافتروا، وكذبوا أيضاً عندما ادعوا بأن الواحد من الملائكة قد يرتكب الكفر والعياذ بالله، ويعاقبه الله بالمسخ، ويقولون: أليس إبليس قد كفر وكان من الملائكة بدليل صحة استثنائه منهم عندما أمروا بالسجود لآدم.

والقول الحق: أن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة ﴿**قال أنا خيرٌ منهُ خلقتنى من نارٍ وخلقتهُ من طينٍ**﴾ ووهم إبليس كما وهموا هم أيضا، لأن

النار ليست أفضل من الطين لأنها إحدى عناصره، ولكنه استكبر عندما ظن نفسه أفضل من آدم ورد الأمر على ربه فكفر لعدم طاعته وتنفيذه أمر ربه، فلعنه الله وطرده، وقال لآدم « إن هذا عدو لك ولزوجك » فكان عدوا لآدم عليه السلام ولأبنائه من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وتلك مشيئة الله الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وأما هاروت وماروت، فقد كانا من الملائكة، ولم يصدر عنهما كفر ولا ارتكاب كبيرة كما ورد فى الإسرائيليات.

وعذابهما على سبيل المعاتبة لهما من ربهما عز وجل، كما يعاتب الرسل والأنبياء على الزلة، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد كانا يعظان الناس. ويقولان: ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ** ﴾ ولا كفر فى تعليم السحر. وإنما الكفر فى اعتقاده والعمل به. كما قال الإمام التفتازانى فى شرح العقائد.

ويقول المحققون من العلماء: إن تعلم السحر لدفع ضره عن المسلمين واجب على سبيل الكفاية لكنهم يحرمون الاشتغال به إلا لضرورة دفع الضر عن المسلمين. ويكفرون من يعتقد به أو يعمل به، ويرونه نوعا من ألوان الشرك بالله عز وجل.

فعقيدة أهل السنة والجماعة هى وجوب الإيمان بالملائكة إجمالا فيمن ورد ذكرهم إجمالا، وتفصيلا بمن وردت أسماؤهم فى الكتاب والسنة كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم عليهم السلام.

ومن أنكر وجود الملائكة، أو مسحهم صفات غير صفاتهم الواردة فى الكتاب والسنة أو اعتقد فى بنوتهم لله عز وجل، أو مشاركتهم لله فى أى شأن من شئونه سبحانه وتعالى، فهو كافر كفرا صريحا، لأنه كذب ما جاء به الرسول ﷺ.

- **(وكتبه)**: الكتب: جمع كتاب. والكتاب هو ما اشتمل على جملة من الأبواب والفصول والفقرات. والإيمان بالكتب المنزلة يعنى

الإعتقاد بانها نزلت من عند الله على كثير من أنبيائه ورسله صلى الله عليهم أجمعين، وأنها كلام الله الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أنزلها الله عز وجل لتكون منهجا ودليلا للأمم التى أمرت باتباعها.

فالإيمان بها واجب، وإنكارها كفر صريح، وآخرها نزولا هو القرآن الكريم دستور حياتنا ومنهاج العابدين من أمة محمد ﷺ. نزل بلغة العرب ليتحملوا مسئولية تبليغه وبيانه للأمة كلها فى شرق المعمورة وفى غربها ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ إنه كتاب المسلمين الأول وهو مصدر شريعتهم. ودليل عقيدتهم ومنهج سلوكهم وأخلاقهم وجاءت السنة النبوية له مبينة لمبهمه وموضحة لغامضه ومفسرة لمشكله. ورد فى الحديث «أوتيت القرآن ومثله معه».

لقد عكف الصحابة رضى الله عنه على جمعه فى الصحف عقب انتهاء حروب الردة وقتال مانعى الزكاة بمشورة من سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى خاف ضياعه عندما رأى الكثير من القراء وهم يسقطون شهداء فى ميادين القتال. فجمعوه فى الصحف ثم أودعوه عند أم المؤمنين سيدتنا حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ولما تم أمر الخلافة لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه أمر بجمعه فى مصحف بالشكل الذى هو موجود به الآن بين أيدينا كما هو، وقد مر عليه أربعة عشر قرنا من الزمان وسوف يبقى إلى أن يشاء الله رفعه من صدور العباد ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

فهو كلام الله القديم أنزله على قلب النبى ﷺ ليكون للعالمين هدى ورحمة ﴿**ذلك الكتابُ لاَ رَيْبَ فِيه هُدًى لِلمُتَّقِين**﴾.

وتلك عقيدة أهل السنة والجماعة. ولكن نازعهم المعتزلة فى ذلك وقالوا: القرآن كلام الله مخلوق» فكان ذلك سببا فى المحنة الكبرى التى اصطلى بنارها علماء أعلام على رأسهم الإمام الجليل أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى رحمه

الله تعالى الذى واجه المعتزلة فى بيت الخلافة وهم يحيون فى عصرهم الذهبى بقوله: «من لم يقل القرآن كلام الله غير مخلوق، فهو كافر»[1].

فهذه الكتب المنزلة لم يرد على وجه التحديد حقيقة عددها. وقد نقل النسفى فى تفسيره عن الزمخشرى فى تفسيره. قال: وهى مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل منها خمسون على شيث وثلاثون على إدريس وعشرة على آدم وعشرة على إبراهيم؛ والتوراة والزبور والإنجيل والفرقان.

وحقيقة الإيمان بها، أن يعتقد المسلم بأن الله قد أنزل كتبا على أنبيائه ورسله إجمالا من غير حصر إلا فيما ورد ذكره فى القرآن أو فى السنة كصحف إبراهيم وألواح موسى والتوراة. وزبور داود وإنجيل عيسى وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم.

والإيمان بهذه الكتب على سبيل الإجمال لا التفصيل بمعنى أنها نزلت من عند الله ولكنها حرفت وبدلت. أما القرآن فيجب الإيمان به تفصيلا كونه كتابنا وكونه محفوظا كما نزل كما أنه يجب الإيمان بصلاحية ما جاء فى القرآن من التشريعات للتطبيق. وإن من أهمل ذلك معتقدا عدم صلاحيته فهو كافر، كونه مكذبا لكلام الله الحق ﴿**ومن أصدقُ من الله حديثا**﴾.

كما يجب الإقرار بانه المعجزة الخالدة. لقد أعجز العرب ببلاغته وبيانه وأعجز غير العرب بتشريعاته وقوانينه ﴿**قُل لَّئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يَأْتُوا بمثْل هذا الْقُرآن لا يأْتُون بمثله ولَو كانَ بعْضُهُم لبعْضٍ ظهيرا**﴾.

- **(ورســـــله)**: جمع رسول فعول من الرسالة وهى سفارة العبد بين

---

(١) رواه ابن الجوزى فى كتابه مناقب الإمام أحمد عن سلمة بن شبيب. وحكى الربيع أن حفصا الفرد قال للشافعى رحمه الله (القرآن مخلوق) فقال الشافعى: (كفرت بالله العظيم) ذكره الرازى فى مناقب الشافعى

الله تعالى وبين ذوى الألباب من خليقته ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنها عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة[1].

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام أحد أركان الإيمان، وخص الرسل بالذكر دون الأنبياء، لأن الرسول يتصف بالنبوة وبالرسالة. فالنبوة أعم والرسالة أخص فكل رسول نبى، وليس كل نبى رسولا.

وقد اختلف العلماء فى تعريف الرسول والنبى للتفريق بينهما، ولكن أقوى وأرجح التعريفات هو :

الرسول: مُبلِّغ برسالة من ربه عز وجل ومأمور بإبلاغها للناس ﴿ **يا أيُّها الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾.

والنبى: مبلغ برسالة من ربه عز وجل ومخير فى إبلاغها للناس.

فالرسول مأمور بالبلاغ ، والنبى مخير فى ذلك، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا كما سبق ولقد بعث الله رسلا وأنبياء كثيرين، أولهم سيدنا آدم عليه السلام وآخرهم ، خاتمهم سيدنا محمد ﷺ. حاول بعض العلماء عدهم وحصرهم، ولكن يجب علينا أن لا نهتم بهذا الأمر كثيرا لأن الله تعالى قال لنبيه ﴿ **منهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ومنهُم من لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ وقوله ﴿ **وإن من قَرْيَةٍ إلاَّ خلا فيها نَذِيرٌ** ﴾.

ولكنا مطالبون بالإيمان تفصيلا فيمن ورد اسمهم فى القرآن أو السنة وهم خمسة وعشرون وأولوا العزم منهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين. ولا نفرق بين أحد منهم ، ولا نفضل أحدا على أحد إلا من ورد نص قرآنى أو نبوى بتفضيله فهم جميعًا خير من اصطفى الله عز وجل من خلقه ؛ ولا يرتفع أحد إلى رتبتهم مهما بلغت درجته فى الولاية.

---

(١) سعد الدين التفتازانى على العقائد النسفية : ١٣٢ ، ١٣٣ .

خلافا لمن فضل بعض الأولياء على بعض الأنبياء، من الباطنية شيعة كانوا أو من غيرهم، فهذا منهم جحود ونكران وتعدى على مقام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ولقد بعثهم الله تعالى جميعًا من البشر الذكور، دون الإناث. لأنه لا تصح نبوتهن، إلى البشر مبشرين أهل الإيمان والطاعة، ومنذرين أهل الكفر والمعصية، ومبينين لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين. وأيدهم بالمعجزات الباهرة، الخارقة للعادة عند تحدى المنكرين لهم على وجه يعجز المنكرين عن الاتيان بمثله، لتكون المعجزة دليل صدق دعواهم فى كل ما يبلغونه عن الله عز وجل.

وأول الأنبياء سيدنا آدم عليه السلام وقد ثبت نبوته بالكتاب والسنة والإجماع. فإنكار نبوته يكون كفرا.

وآخرهم سيدنا محمد ﷺ وقد ثبت نبوته ورسالته بالكتاب والسنة والإجماع وظهور المعجزات الخارقة للعادة على يديه الشريفتين عندما أنكر عليه قومه.

فهو الخاتم فلا نبى بعده، ولايناقض ذلك نزول سيدنا عيسى عليه السلام فى آخر الزمان لأنه لن ينزل برسالة جديدة، وإنما سيدعو الناس إلى اتباع محمد ﷺ، ويكسر الصليب ويقيم الحق والعدل كما جاء فى شريعتنا.

وأفضل الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد ﷺ لقول الله عز وجل:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فنبى الأمة الفاضلة لابد ان يكون فاضلا وقد ورد فى الحديث «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فهو أفضل ولد آدم عليه السلام والفرق بين محمد ﷺ وبين الأنبياء الآخرين حاصل من ثلاثة وجوه ذكرهم المودودى فى كتابه «مبادئ الإسلام» بقوله:

١- أرسل هؤلاء الأنبياء إلى أمم خاصة ولأزمان محدودة، أما محمد ﷺ فقد أرسل إلى العالمين جميعا وحتى يوم القيامة.

٢- لقد انقرضت تعاليم هؤلاء الرسل انقراضا تاما، أو لم تبق محفوظة

بأشكالها الأصلية إن كانت قد بقيت فى هذه الدنيا وكذلك لا توجد سيرهم وأحوالهم. وقد ضاعت حقيقتها فى روايات الناس وأقاصيصهم التى اختلقوها من عند أنفسهم عن حياة هؤلاء الرسل. فلا يمكن أن يتبعها المرء، وإن ود ذلك وسعى ذلك.

أما محمد ﷺ فتعاليمه وسيرته وأقواله وأعماله وأخلاقه وعاداته وخصاله كلها مدونة فى الكتب فى متناول أيدى الناس، فالحق أن الحى الوحيد من جميع رسل الله وأنبيائه هو محمد ﷺ. وهو وحده الذى يمكن للناس أن يتبعوه ويهتدوا بهديه.

٣- أن تعاليم الإسلام الذى جاء به الأنبياء الأقدمون، ما كانت تعاليم كاملة. فما جاء نبى من هؤلاء الأنبياء إلا أصلح تعاليم الأنبياء الأقدمين وأحكامهم وقوانينهم وطرق هدايتهم. وحذف منها وأضاف إليها. فهكذا كان عامل الرقى والكمال والإصلاح يعمل عمله قبل محمد ﷺ. لذا لم يحفظ الله تعاليم هؤلاء الرسل بعد مضى زمانهم. فإن الناس ما كانوا بحاجة إلى تعليم ناقص سابق إذا جاءهم تعليم كامل جديد.

وأخيراً أوتى النبى محمد ﷺ تعليم الإسلام الكامل الناضج من كل جهة وهكذا نسخت شرائع سائر الأنبياء برسالة محمد ﷺ. لأن اتباع الناقص بإزاء الكامل مما يخالف العقل. ومن اتبع محمدا ﷺ فقد اتبع الأنبياء جميعًا.

ثم يقول رحمه الله تعالى: «ومن أجل ذلك لابد للبشر جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ من ثلاثة وجوه:

١- أنه رسول صادق من عند الله تعالى.

٢- وأن هدايته كاملة وليس فيها شئ من النقص أو الخطأ.

٣-- وأنه آخر نبى جاء للناس من عند الله تعالى إلى أية أمة من الأمم إلى يوم القيامة ولا يأتئ بعده رجل يكون الإيمان به من شرط الإسلام ويكون من لا يؤمن به من الكافرين» ا.هـ.

كما يجب الاعتقاد الجازم بعصمتهم جميعًا من الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها خلافا لمن جور ذلك قبل النبوة، وإن كان الصواب أنهم معصومون قبل النبوة وبعدها.

وما ورد فى كتب التفسير أو فى كتب قصص الأنبياء من الإسرائيليات مما يوهم بارتكاب بعضهم معاصى، فهذه الأقوال مدسوسة على أصحاب هذه الكتب، وخاصة وأن أكثر النساخين كانوا من اليهود والفرس والترك وغيرهم ممن كان فى إيمانه رقة وضعف.

ولا يتصور مسلم أبدًا أن علماء وأئمة أجلاء كالبغوى والواحدى والزمخشرى والنسفى يقعون فى هذا الخطأ بنقل الإسرائيليات فى كتبهم. ولكنهم كانوا كغيرهم ممن دست عليهم أقوال وآراء ما ألفوها وما عرفوها مثل ما هو مدسوس على كثير من أئمة الصوفية وبعض العلماء الأجلاء.

ومما لاشك فيه أن الأنبياء والمرسلين أفضل من الملائكة، والملائكة معصومون، ولابد أن يكون الأفضل أكثر عصمة من المفضول.

فمن أنكر نبوة أى نبى أو رسول أو أنكر عصمته أو كذبه أو كذب بعض ما جاء به أو أنكر معجزته، أو استهزأ به أو بما جاء به أو ببعض ما جاء به، أو آمن بأن أى تشريع بشرى أفضل من تعاليم أى نبى، فهو كافر كفرا يخرجه من الملة.

- **(واليوم الآخر)**: وهو من الموت إلى آخر ما يقع يوم القيامة. عندما يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت.

ووصف اليوم بالآخر، لأن لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا لما يعقبه ليل أى يوجوده وما اشتمل عليه من سؤال الملكين ونعيم القبر أو عذابه والجزاء فيه. والبعث والحساب والصراط والميزان والجنة والنار وغير ذلك مما بينه أهل العلم بأدلته المأخوذة من القرآن والسنة. والرد على المخالفين فى بعض الأمور التى تقع فيه.

وقال بعضهم: إنه وصف بالآخر، إما تأكيدا كقولك: أمس الدابر. أو احتراز عن غير الآخر لأنه إحياء بعد إماتة، حياة أبدية دائمة.

فهذه أمور يجب الإيمان بها للنص عليها فى القرآن الكريم ولإخبار الصادق المصدوق ﷺ عنها.

كما يجب الإيمان بالشفاعة الكبرى لسيدنا محمد ﷺ. والإيمان بثبوت الشفاعة لبعض المؤمنين ممن منحهم الله تعالى هذا الشرف العظيم.

إن من ينكر وقوع اليوم الآخر وما فيه فهو كافر مخلد فى النار خلافا لبعض المتكلمين الذين يرونه فاسقا لا كافرا كون ذلك من الأمور السمعية كما يقولون.

والحق الذى لا خلاف عليه هو كفر كل من ينكر أمرا معلوما من الدين ثبت بالأدلة النصية قرآنا كانت أو سنة لأنه بذلك يكذب النص نفسه.

فالآيات الواردة فى أمور الآخرة كثيرة. والأحاديث الصحيحة وقد بلغت حد التواتر فى المعنى وإن كانت آحادا.

«وقد أنكر عذاب القبر بعض المعتزلة والروافض لأن الميت جماد لا حياة له ولا إدراك فتعذيبه محال. والجواب: أنه يجوز أن يخلق الله تعالى فى جميع الأجزاء أو فى بعضها نوعا من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب أو لذة النعيم. وهذا لا يستلزم إعادة الروح إلى بدنه ولا أن يتحرك ويضطرب أو يرى أثر العذاب عليه حتى إن الغريق فى الماء أو المأكول فى بطون الحيوانات أو المصلوب فى الهواء يعذب وإن لم نطلع عليه، ومن تأمل فى عجائب ملكه تعالى وملكوته وغرائب قدرته وجبروته لم يستبعد أمثال ذلك فضلا عن الاستحالة»[1].

هذا وقد أنكر الفلاسفة المسلمون منهم وغير المسلمين البعث المادى وقالوا إن النعيم والعذاب روحانى لا جسمانى، ولذلك كفرهم الإمام الغزالى رحمه الله تعالى. لأنهم بذلك ينكرون صريح القرآن والسنة، أو يؤولونه تأويلا يخرجه عن موضوعه ينتصرون به لصحة مذاهبهم.

---

(١) شرح التفتازانى على العقائد النسفية ص ١١٣.

فعقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان باليوم الآخر وما فيه تصديقا لكتاب الله عز وجل وللأحاديث الواردة والتى ثبت صحة ورودها عن النبى ﷺ .

- **(وتؤمن بالقـــدر خيره وشـــره)** :

وفى رواية لمسلم : **وبالقـــدر كـــله** . واجب شرعا علينا نحن المكلفين الإيمان بالقدر أى بتقدير الله سبحانه وتعالى الأمور وإحاطته بها علما . فما قدره الله عز وجل واقع لا محالة وفق علمه وقدرته ومشيئته وإرادته، وما لم يقدره فإنه يستحيل وقوعه .

ولعلماء الكلام والعقيدة كلام واسع وخلاف عميق حول مشكلة القضاء والقدر، وليس هذا مجال ذكره لأنه من مباحث علم التوحيد، لأن ما يعنينا هو بيان حكم التصديق بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، مما يستلزم بيان معنى كل من القدر والقضاء. بقدر نعرف منه حقيقة كل منهما فالقدر كما عرفه الأشاعرة هو : «إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم»

وعند الماتريدية هو :

«تحديده تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذى يوجد به من حسن وقبيح ونفع وضر وما يحويه من مكان وزمان وما يترتب عليه من طاعة وعصيان وثواب وعقاب وغفران» .

ذكره الشيخ عبد السلام اللقانى فى شرحه على جوهرة التوحيد . ثم قال معلقا على قولى الأشاعرة والماتريدية [1] «والظاهر أنه اختلاف عبارة، فهما راجعان إلى قول بعضهم : المراد من القدر أن الله تعالى علم مقادير الأشياء

---

(١) الأشاعرة : أتباع أبو الحسن الأشعرى رحمه الله . والماتريدية : أتباع أبو منصور الماتريدى رحمه الله تعالى وجميعهم متكلمون من طائفة أهل السنة والجماعة . وكان شغلهم الشاغل هو الرد على الفرق الأخرى بنفس منهجهم الكلامى لذا سموا : المؤولة . لأنهم لجأوا للتأويل اجتهادا منهم للدفاع عن الإسلام .

وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد ما سبق فى علمه أنه يوجد فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته».

ثم قال معرفًا «القضاء». «وهو لغة: الحكم وعرفه الماتريدية: بأنه الفعل مع زيادة إحكام» ويقول أيضًا: «والإيمان بالقضاء والقدر يستدعى الرضا بهما والمقصود بيان وجوب اعتقاد عموم إرادة الله تعالى وقدرته وعلمه لما مر من أن الكل بخلقه تعالى وهو يستدعى العلم والقدرة والإرادة لعدم الإكراه والإجبار. والرد على المعتزلة. لأنهم القدرية. وهم قدريتان أولى: وهى تنكر سبق علمه تعالى بالأشياء قبل وجودها. وتزعم أن الله تعالى لم يقدر الأمور أزلا. ولم يتقدم علمه تعالى بها. وإنما يأتنفها علما حال وقوعها. وهؤلاء انقرضوا قبل ظهور الشافعى رضى الله تعالى عنه. وقدرية ثانية وهم مطبقون على أنه تعالى عالم بأفعال العباد قبل وقوعها. لكنهم خالفوا السلف. فزعموا أن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهة الاستقلال بواسطة الأقدار والتمكين. وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من المذهب الأول وإلزام الشافعى إياهم بقوله: إن سلم القدرية العلم خصموا. إذ يقال لهم أتجوزون أن يقع فى الوجود خلاف ما تضمنه العلم. فإن منعوا وفقوا، وإن أجازوا. لزمهم نسبة الجهل إليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا» ا.هـ.

ويقول العلامة ابن حجر الهيثمى فى فتح المبين ما نصه:

واعلم أن الإيمان بالقدر على قسمين:

أحدهما: الإيمان بأنه تعالى سبق فى علمه ما يفعله العباد من خير وشر وما يجارون عليه، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجرى على ما سبق فى علمه وكتابه.

ثانيهما: أنه تعالى خلق عباده كلها من خير وشر وكفر وإيمان، وهذا القسم تنكره القدرية كلهم، والأول لا ينكره إلا غلاتهم، وكفرهم بإنكاره كثيرون.

ومحل الخلاف: حيث لم ينكروا العلم القديم. وإلا كفروا كما نص عليه الشافعي وأحمد وغيرهما. ا.هـ.

ويذكر البياضي في إشارات المرام ما نصه:

كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي – رضي الله عنهما – يسأله عن القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن بن علي (ت ٥٠ هـ) [١]:

«من لم يؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره، فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه، فقد فجر، وإن الله تعالى لا يطاع استكراها ولا يعصى بغلبه لأنه تعالى مالك لما ملكهم. وقادر على أقدرهم؛ فإن علموا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا. وإن عملوا بمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما عملوا. وإن لم يفعل فليس هو الذي جبرهم على ذلك. ولو جبر الخلق على الطاعة. لأسقط عنهم الثواب. ولو جبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب. ولو أهملهم كان ذلك عجزا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم. فإن عملوا بالطاعة فله المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم».

إن الحديث في مشكلة القدر والقضاء. لا يستقيم له عود. ولا ينتج عنه إلا أحد أمرين:

الأول: الإنزلاق إلى الهاوية والضياع والوقوع في حيرة وظلام. وربما كفر والعياذ بالله تعالى.

الثاني: وإما تسليم صادق لله تعالى بكل ما قدر وقضى وتفويض كنه هذا الأمر لله تعالى وهذا لا يتأتى إلا من أناس أنار الله قلوبهم بنور الحب والرضا والمعرفة.

فالأجدر بالعبد المسلم: أن يؤمن بقضاء الله وقدره ويسلم له في كل ما قدر لأن الله تعالى لا يظلم أحدا، وهذه أمور تخفى علينا حكمتها فكيف يتسنى لأي مسلم أن يشغل عقله بالبحث عنها، وهو يعلم أن ذلك منه لا يجدي، إن

---

(١) هو الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ.

الاشتغال بذلك إنما هو بحث لإيجاد المبرر لارتكاب المعصية والقول الحق هو ما قاله الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه [1]:

«إن الله تعالى أراد بنا شيئا، وأراد منا شيئا، فما أراده بنا طواه عنا. وما أراده منا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا».

وهذا القول يمثل موقف السلف الصالح رضوان الله عليهم من هذه القضية.

اللهم امنحنا إيمانًا بك وتصديقًا بقدرك يضئ لنا طريق الوصول إلى قربك ورضاك وحبك.

(قال : صـــــدقت) : فزاد ذلك من عجبهم واستغرابهم، فكيف يكون السائل مصدقا وحاكما على إجابة المسئول فادهشهم ذلك، ولو أنهم فكروا قليلا وربطوا مواقع الأسئلة بتصرفات السائل لعلموا أنه الأمين جبريل عليه السلام ولكن شاءت إرادة الله ذلك، حتى لا يشغلوا عن سماع الجواب بأى أمر آخر.

(قال : فأخـبرنى عن الإحســـــان) : سأل عن الإحسان بعد السؤال عن الإسلام والإيمان. لترتبه عليهما وتحققه بهما. فلا يمكن وقوعه مع فقدهما أو فقد أحدهما، لهذا أتى بذكره بعدهما.

فهو أعلى مراتب الإسلام وأزكاها، وأرفعها شانا وأسماها، وأعظمها قدرا وخطرا، به تمام الدين وكمال الإيمان، وصدق اليقين، وإخلاص العبادة، وطهر العقيدة من نزغات الشيطان، وأوهام المبتدعة، وبه التحرر من ذل العبودية للمخلوقين، والإنفكاك من أسر الحياة الدنيا الانشغال بزخارفها ومتعها الفانية. طلبا وطمعا فيما عند الله عز وجل من الخير والفضل العميم، لذلك شرط الإحسان فى كل من الإسلام والإيمان.

قال الله عز وجل: ﴿ **بلى من أسْلَمَ وجْهَهُ لله وهُو مُحْسنٌ - ثُمَّ اتَّقوْا وآمنُوا - ثُمَّ اتقوا وأحْسنُوا** ﴾.

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ١ ص ١٤٧.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ مع الَّذين اتَّقوا والَّذينَ هُم مُحْسنُون** ﴾.

لذا كان جزاء المحسنين: الحب والرضا والجنة والرؤيا. قال عز وجل: ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحبُّ المحْسنين** ﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **للَّذين أحْسنُوا الحُسنى وزيادةٌ** ﴾.

يقول المفسرون: الحسنى (الجنة) وزيادة (رؤية الله عز وجل فى الآخرة).

والإحسان يتضمن أمرين مهمين:

أحدهما: أداء العبادة بشكلها الصحيح كما نصت عليه الشريعة بلا زيادة ولا نقص.

الثانى: الإخلاص فى العبادة والتوجه بها لله عز وجل دون مراعاة لأحد.

فإذا حقق العبد المسلم هذين الأمرين كان صاحب الإحسان المتحلى به. لأنه بذلك قد حقق أحد أمرين عظيمين هما:

أولا: غلب عليه مشاهدة الحق تبارك وتعالى.

وثانيا: إنه إذا لم يصل إلى هذه الحالة فقد غلب عليه: أن الحق سبحانه وتعالى مطلع عليه ومشاهد له ومراقب لكل تصرفاته من قول أو فعل حتى ما يصدر عن قلبه من خطرات.

فالأول: مقام المشاهدة. والثانى: مقام المراقبة. كما يجمع على ذلك شيوخ المتصوفة فلابد للعبد أن يتحقق له أحد هذين الأمرين حتى يوصف بالإحسان فى العبادة لله تعالى.

قال بعضهم: «من عمل لله على المشاهدة. فهو عارف. ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص». وسئل الشيخ ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه: ما أفضل الطاعات؟ فقال: «مراقبة الحق على دوام الأوقات».

تستفاد هذه الأمور جميعها من جواب النبى ﷺ:

- **(قال: أن تعبد الله كأنك تراه)**: فهذا من جوامع كلمه ﷺ

الذى أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا فإذا تحقق هذا للعبد أتم عبادته فى خشوع وخضوع وتذلل وإخلاص يليق بمقام العبودية مقام سيدنا رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء والصالحين؛ الذين عرفوا الله تعالى فشاهدوه فى كل أحوالهم وأعمالهم فعاشوا حياتهم فى توازن مستمر ومستقيم بين مقامي الخوف والرجاء فصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.

- (**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**): فإن لم يتحقق لك أيها المسلم هذا المقام الأرفع فاستمر على إحسانك العبادة لأنه عز وجل يراك. لأنه القائم على كل نفس بما كسبت، المشاهد لكل أحد من خلقه فى حركته وسكونه حتى خطرات قلبه.

ورؤية الله للعبد ليست متوقفة على رؤية العبد له تعالى، فرؤية الله تعالى لعباده قائمة ومستمرة، سواء وجدت من العبد رؤية أو لم توجد.

وهذا المقام يورث فى العبد الخوف الدائم من الله عز وجل، لوقوعه تحت مراقبته سبحانه وتعالى فلا يستطيع الإفلات من ذلك، وكيف يتأتى هذا والكون كونه والملك ملكه والعباد خلقه، فأين يهرب المسكين من ربه؟

ذكر الشيخ الشبراخيتى فى كتابه «الفتوحات الوهبية» ما نصه:

وقال أبو عبد الله الرازى سمعت أبا عثمان يقول: قال لى أبو حفص:

«إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ولنفسك. ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك».

وذكر أيضا: وحكى عن محمد بن سكران، وهو من مشاهير مشايخ بغداد المتأخرين أنه وقف على قوله: (فإن لم تكن) وهو إشارة إلى مقام المحو والفناء. وتقديره فإن لم تكن، أى لم تصر شيئا، وفنيت عن نفسك حتى كأنك ليس بموجود فإنك حينئذ تراه، فإنها الحجاب بينك وبين شهوده. فإن من ألقى الحجاب رأى الجناب» وهو شبيه بما يحكى عن أبى يزيد فإنه قال: رأيت رب العزة فى المنام فقلت: يارب كيف الطريق إليك. فقال: خل نفسك وتعالى» ا.هـ.

ولقد تكلم فى مقام الإحسان خلق كثير وخاصة السادة الصوفية كونه أرقى وأرفع مراتب الإسلام ولبعضهم شطح فى كلامه. أنكره جمع كبير من العلماء عليهم.

ويقول العلماء. إن المسلم إذا كان فى مرتبة الإسلام أو فى مرتبة الإيمان. فلربما تسرب الرياء إلى قلبه عند قيامه ببعض الأعمال التعبدية. أما إذا رتقى إلى رتبة الإحسان فإنه يتعذر على الرياء أن يتسرب إليه. لأنه فى الحضرة الإلهية. وهو فيها محفوظ وليس للشيطان عليه من سبيل. لأنه عبد ربه حتى أتاه اليقين. فكان عبداً لله حقا وصدقا.

قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر:٤٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً** ﴾ [الإسراء:٦٥].

وقال عز وجل: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

فالعبد إذا دخل دائرة الإحسان. كان قريبا من ربه. بعيدا عن أهواء نفسه. ونزغات الشيطان فيطرح الدنيا خلف ظهره. قانعا بما عند ربه عز وجل.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨].

عرف هذا كله وأكثر منه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين من عباد الله الصالحين.

(قال: صدقت): فزاد عجبهم وكثر استغرابهم أكثر من ذى قبل.

- **(قال: فأخبرنى عن الساعة)**: أى عن زمن وقوعها، ووقت قيامها، لا عنها نفسها، لأن الساعة نفسها مقطوع بها. وسمى بها مع طول زمنه، اعتبارا بأول أزمنته، فإنها تقوم بغتة فى سعة. لمفاجأتها الناس فى ساعة، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة، حتى إن من يتناول لقمة لا يمهل حتى يبتلعها وحتى إن الرجلين يكون بينهما الثوب لا ينبايعانه ولا يطويانه.

قال الله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾. ولذا قال المفسرون فى قول الله تعالى:

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾. أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملتهم فيموتون فى مكانهم.

وإما سميت بذلك، لسرعة حسابها، وإما تسمية للكل باسم البعض.

والمراد: أول ساعاتها. وإما لأنها على طولها، كساعة عند الله على الخلق. وإما لأن طولها على الكفار، وأما المؤمنون، فإنها تكون عليهم كساعة.

روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال:

قرأ رسول الله ﷺ ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ فقلت: ما أطول هذا. فقال النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا».

فإذا كان لسائل أن يقول: لماذا يسأل جبريل عليه السلام، رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، وهو يعلم أن أحدا من الخلق لا يطلع عليه؟

فيجاب عن ذلك: بأن جبريل عليه السلام، قد سأل هذا السؤال لينبه الناس على أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله عز وجل. وليس فى إمكان أحد أن يطلع عليه.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

قال رسول الله ﷺ نافيا علمه بوقت وجودها، لأن علم ذلك عند الله تعالى ولذلك أجاب عن السؤال قائلا:

- **(ما المسئول عنها بأعلم من السائل)**: أى أن علمى يزمن وجودها مساوى لمقدار علمك بذلك. فالسائل والمسئول يعلمان بيقين أن العلم بزمن وجودها مما ستأثر الله تعالى بعلمه. فأنا وأنت سواء.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾.

وفى الصحيح: روى أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله. وتلا ﴿**إنّ الله عنده علْمُ السّاعة وينزّلُ الغيث ويعلمُ ما في الأرْحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدْري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت إنّ الله عليمٌ خبيرٌ**﴾)

وراد الإمام أحمد: «أوتيت مفاتيح كل شئ إلا الخمس: ﴿**إنّ الله عنده علْمُ السّاعة ... الآية**﴾ وقد وهم بعض العلماء عندما ظن أن رسول الله ﷺ يعلم وقت حدوثها لحديث «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والإبهام.

وقد أجاب عن ذلك الحليمى فيما نقله عنه الشبراخيتى فى الفتوحات الوهبية.

«أن معناه: أنا النبى الأخير، فلا يلينى نبى آخر، وإنما تلينى القيامة، وهى مع ذلك دانية، لأن أشراطها متتابعة بينى وبينها. غير أن ما بين أول أشراطها إلى آخرها غير معلوم». ثم يقول[1]: «الحق كما قاله جمع: أن الله سبحانه وتعالى لم يقبض نبينا عليه الصلاة والسلام حتى أطلعه على كل ما أبهمه عنه إلا أنه أمره بكتم بعض والإعلام ببعض». ا.هـ.

قد يكون هذا صحيحا، وإذا كان الله تعالى قد عرف النبى ﷺ ببدء وقوعها ووقت ذلك وأمره بكتمه. فهذا يعنى أنه ليس من الأمور التكليفية للعباد، وإلا لأخبرهم به وما دام لم يخبر به. فلسنا مكلفين بمعرفته. كما أننا لسنا مكلفين بمعرفة ما إذا كان رسول الله ﷺ يعلم ذلك أم لا؟

وأغلب الظن أن الله عز وجل لم يخبر أحدا من عباده بزمن بدء حدوثها لصريح الآيات القرآنية والأحاديث الواردة فى ذلك. ويجب أن نتبع النص ولا نجرى وراء تأويل أو تفسير مبنى على الحدس والتخمين. لأن التأويل لا مكان له فى مسائل السمعيات، لأنها تؤخذ من الله تعالى ورسوله ﷺ.

ولما نفى الرسول ﷺ عن نفسه وعن السائل علمهما بذلك. سأله:

(**قال: فأخبرني عن أماراتها**): سأخبرك عن أشراطها وعلاماتها.

---

(١) الشبراخيتى

التى تدل على قرب وقوعها. وليس على زمن بدء حدوثها، ثم أخبره عن أمارتين فقط من أماراتها الكثيرة، كون هاتين الأمارتين هما أول ما يقع من أمارات الساعة الكبرى، ثم تأتى بعدهما الأمارات والعلامات الأخرى من باب ذكر حدوث البعض لدلالته على حدوث الكل مما وردت به أحاديث صحيحة.

- **(قال: أن تلد الأمة ربتها)**: الأمة هى: المرأة التى ضرب عليها الرق. وربتها هى: سيدتها. يقال فلانة رب البيت أى سيدته وفى رواية «ربها» أى سيدها وفى أخرى «بعلها» بمعنى ربها. ومنه قول الله عز وجل ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلاً**﴾. أى ربا. وأما المعنى المراد من قول النبى ﷺ: فإنه يحتمل عدة أوجه هى[1]:

أولا: أن ذلك كناية عن كثرة التسرى اللازمة لاستيلاء المسلمين على بلاد الكفر حتى تلد السرية (الأمة) بنتا أو ابنا لسيدها، فيكون ولدها هذا سيدا لها كأبيه.

ثانيا: أو كثرة بيع المستولدات لفساد الزمان حتى تشترى المرأة، أمها وتسترقها، وهى تجهل أنها أمها. وذلك لغلبة الجهل الناشئ عن بيع أم الولد. وهو ممنوع إجماعا خلافا لمن نازع فيه.

ثالثا: قيل: ويتصور هذا فى غير أمهات الأولاد. بأن تلد حرا يشبهه. أو عبدا بنكاح أوزنا. ثم تباع بيعا صحيحا. وتدور فى الأيدى، حتى يشتريها ولدها، فيملكها وهو لا يدرى فيكون سيدها، وهذا أكثر وأعم من تقديره فى أمهات الأولاد.

رابعا: أو عن كون الإماء يلدن الملوك. فتكون أم الملك من جملة الرعية. وهو سيدها. وسيد غيرها من رعيته. ولكن يظهر هذا على رواية «ربها. لا ربتها» لندرة كون الأنثى ملكة. وقد وقع هذا إبان قيام دولة المماليك بمصر.

خامسا: أو يمكن أن يكون كناية عن كثرة عقوق الأولاد لأمهاتهم. فيعاملونهم معاملة السيد أمته، ممن يصدر منه لها من الإهانة والسب والشتم ونحو ذلك، ويستأنس له برواية «أن تلد المرأة». وخبر «لا تقوم الساعة حتى

---

(١) بتصرف وترتيب من كتاب فتح المبين لابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى.

يكون الولد غيظا». وهو ما يحدث هذه الأيام من تفشى ظاهرة عقوق الأولاد لآبائهم وأمهاتهم بصورة تدمى قلوب المؤمنين الذين يتقون الله عز وجل.

سادساً: أو أنه كناية عن كثرة بيع السرارى (الإماء) حتى يتزوج الإنسان أمه وهو لا يدرى وذلك بناء على رواية «بعلها» وأن المراد بالبعل هنا: زوجها.

وأحسب أن قول الرسول ﷺ «أن تلد الأمة ربتها» يحتمل كل هذه المعانى. وذلك لوقوع أكثرها فى الماضى وفى الحاضر. ولم لا يكون ذلك كله هو المعنى من قوله ذلك.

ثم يبين له الأمارة الثانية فيقول:

- **(وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان)**:

ترى: من الرؤية البصرية. أى تبصر بعينيك.

الحفاة: جمع حاف. أى من لا نعل له. ولكنه يمشى حافيا.

العراة: جمع عار. أى من لاشئ على جسده يستره. أو من عنده ثياب لا تكفى حاجته وفى رواية «الحفدة» أى الخدمة.

العالة: جمع عائل من عال إذا افتقر ومنه قوله تعالى: ﴿**وإن خفتُم عيلة فسوف يُغنيكُمُ اللهُ من فضْله**﴾. وقوله تعالى: ﴿**ووجدك عائلاً فأغنى**﴾.

ويقال أعال. إذا كثرت عياله.

رعاء: جمع راع. والرعى هو الحفظ. لأن راعى الشاة يحافظ عليها.

الشاء: جمع شاة. وفى رواية لمسلم (رعاء البهم) جمع بهيمة. وفى رواية للبخارى (رعاء الإبل البهم).

وبالجمع بين هذه الروايات كلها يكون المعنى المراد: رعاة البهائم بصفة عامة.

يتطاولون: يرفعون البنيان عاليا؛ وهو ما يحدث الآن بالفعل بين البدو الذين أصبحوا يسكنون القصور والعمائر بدل بيوت الشعر أو بيوت الطين والأكواخ.

البنيان: جمع مبنى. أى يرفعونها عدة أدوار. وقد مات رسول الله ﷺ ولم يشيد بنيانا ولا طاوله.

وروى البيهقى فى شعب الإيمان عن الأعمش بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى بناء أكثر مما يحتاج إليه كان عليه وبالا».

وهذا كناية عن قلب الأوضاع، بأن يصبح الأسافل والسوقة ملوكا ورؤساء. أو كالملوك أو يشغلون وظائف عليا فتصير إليهم أمور العباد، بعد أن كانت أمورهم بأيدى غيرهم.

ويتحقق ذلك بالقهر والغلبة أو بسبب انتشار الفساد فى المجتمع فيتسرب أهل الطبقة الدنيا إلى المراكز العليا فى الدولة فيشغلون الوظائف العليا ذات التأثير المباشر فى تحديد مصير البلاد والعباد وقد صح فى الحديث «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» رواه أحمد والترمذى عن حذيفة رضى الله عنه. ورواه ابن مردويه عن على كرم الله وجهه. اللكع: العبد أو الأحمق أو اللئيم. أى حتى يكون اللئام والحمقى أو العبيد رؤساء الناس.

ومن أشراط الساعة أن يملك من ليس أهلا أن يملك. ويرفع الوضيع ويتضع الرفيع (١).

«إذا وسد وفى رواية أسند الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة» رواه البخارى عن أبى هريرة.

وجاء فى الصحيح أيضًا: «من أشراط الساعة. أن توضع الأخيار وترفع الأشرار».

وهو ما يؤكده واقع المسلمين اليوم. فلقد أصبح أهل الطبقات الدنيا من الفقراء والأعراب والخدم والعبيد وأهل الفاقة. يملكون شاهق المبانى والأرصدة المالية فى المصارف المختلفة. وبعضهم شغل وظائف عليا.

وتهافت الناس جميعًا على طلب الدنيا. ونحّو الدين جانبا، وصار أهل العلم والمعرفة ومن كانوا أصحاب مراتب عليا، هم الأقلون الأشقياء، أهل الفاقة والحاجة، كما أصبح عالم الدين متهما. والمسلم المتدين معيبا.

---

(١) رواه نعيم بن حماد عن كثير بن مرة. مرسلا.

أليس هذا قلبا للأوضاع. وتقدما للساقة على المقدمة. وغرسا للثمرة مكان الجذر وارتفع الجذر ليحل محلها ويأخذ مكانها.

وللساعة أمارات أخرى سكت عنها رسول الله ﷺ فى هذا الحديث. ولكنه ذكرها فى أحاديث أخرى متفرقة، ولا بأس من ذكرها على سبيل الإجمال تتميما للفائدة فنقول وبالله التوفيق:

إن أمارات الساعة وأشراطها كثيرة، وحصرها يحتاج إلى مجلد كامل مثل ما فعل. مولانا السيد الشريف الشيخ محمد بن عبد الرسول البرزنجى الحسينى الموسوى الشافعى الشهرزورى المدنى طيب الله ثراه المتوفى بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم. سنة مائة وثلاثة وألف من الهجرة. ودفن بالبقيع، رحمه الله تعالى.

فقد وضع كتابا حصر فيه علامات الساعة وأشراطها أسماه «الإشاعة لأشراط الساعة» ففيه جمع أشراط الساعة وصنفها تحت ثلاث مجموعات:

العلامات البعيدة (الصغرى)، العلامات الوسطى، العلامات الكبرى.

وأما غيره. فقد ذكر من العلامات الشئ القليل أو الشئ الكثير ولكن جاء بها مبعثرة فى مؤلف له. أو تمثل بابا من أبوابه أو فصلا من فصوله. اللهم إلا كتابا صغيرا، يعتبر رسالة متوسطة ألفه العلامة السيد محمد صديق القنوجى البخارى وأسماه «الإذاعة لما كان وما يكون بين يدى الساعة» وأغلب الظن أنه ملخص لكتاب الإشاعة المشار إليه فيما سلف.

يقول الشبراخيتى فى كتابه «الفتوحات الوهبية» ما نصه:

فالساعة لها علامات كثيرة، كقبض العلم، وكثرة الزلازل، وكثرة الفتن. وفيض المال حتى لا يجد الرجل من يدفع له زكاة ماله؛ وكثرة الهرج يعنى القتل. وإضاعة الصلاة، والأمانة، وأكل الربا وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج. وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾.

قال الترمذى: فتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان. فتجلو وجوه المؤمنين بالعصا. وتختم أنف الكافر بالخاتم. حتى إن أهل المائدة الواحدة يجتمعون للطعام، فينادى بعضهم لبعض يا مؤمن ويا كافر. لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه. وتقول: يا فلان الآن تصلى. قيل: وهذه الدابة هى الفصيل الذى كان لناقة صالح عليه السلام. فلما عقرت أمها هربت وانفتح لها جحر فدخلت فيه فانطبق عليها وهى فيه إلى وقت خروجها. ا.هـ.

وقد ذكر الشبراخيتى عن الشيخ محمد المصرى أنه قال فى تفسيره:

(ثم إن أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العامة من معظم الأرض: خروج الدجال ثم نزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، والآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوى. طلوع الشمس من مغربها، ولعل خروج الدابة فى ذلك الوقت أو قريب منه، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة، النار التى تحشر الناس) ا.هـ.

فهذه النار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وفى هذا القدر كفاية مناسبة للمقام. ومن أراد المزيد فليطالع كتب: التذكرة للقرطبى والإشاعة لأشراط الساعة للبرزنجى. والإذاعة للقنوجى. وغيرها من المصنفات التى عنيت بهذا الأمر.

والله أسأل أن يقبضنا إليه غير مفتونين ولا مغبونين وأن يحشرنا فى زمرة سيد الأولين والآخرين مع الصحب الكرام وتابعيهم بإحسان والحمد لله رب العالمين. والله تعالى أعلم، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

(ثم انطلق، فلبث مليًّا): أى ذهب السائل فلبث زمنا طويلا. وجاء فى رواية أبى داود والترمذى: أنه لبث ثلاثا. وظاهرها أنها ثلاث ليال. ولا ينافى هذا ما ورد أنه ﷺ ذكره فى المجلس، لأن عمر لم يحضر قول النبى ﷺ بل كان، قام إما مع الذين توجهوا فى طلب الرجل أو لشغل آخر، ولم يرجع مع من

رجع لعارض، فأخبر النبى ﷺ الحاضرين فى الحال، ولم يتفق الإخبار لعمر إلا بعد ثلاثة. بدليل ما جاء فى رواية الشيخين عن أبى هريرة رضى الله عنه « فأدبر الرجل فقال عليه الصلاة والسلام ردوه على. فأخذوا يردونه فلم يجدوا شيئا. فقال النبى ﷺ : هذا جبريل » فيحمل على أن عمر رضى الله عنه لم يحضر قوله هذا بل كان قام عن المجلس فأخبره أبو هريرة بعد ثلاثة. ذكره الفشنى فى المجالس السنية **(ثم قال)** : أى رسول الله ﷺ :

(يا عمر أتدرى من السائل؟ .. قلت : الله ورسوله أعلم) : تخصيص عمر رضى الله عنه يدل على جلاله ورفعة مقامه ومنزلته عند النبى ﷺ وذلك لما عرف عنه بالشدة والصرامة فى إقامة شعائر الدين، والحرص على تعلم أحكامه وشتى مسائله؛ لذلك خصه النبى ﷺ من بين الصحابة بالذكر، لأنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أصحاب الفضل، وهل يبلغ أحد مبلغ النبى ﷺ وآله فى الفضل؟ فأجابه عمر رضى الله عنه « الله ورسوله أعلم ».

ذكر الشراخيتى فى الفتوحات قال: قال زين العرب فى شرحه للمصابيح: لم يقل أعلما. لأن من التفصيلية مقدرة. أى الله ورسوله أعلم من غيرهما. ا.هـ.

ففى إجابة عمر، حسن ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم من مزيد الأدب معه، لردهم العلم إلى الله ورسوله؛ كما ذكره ابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى.

فتفويض العلم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ إنما يحسن إذا لم يكن عند المسلم علم يجيب به. فرد العلم إلى الله ورسوله حينئذ إجلال وذكر وعبادة يثاب عليها العبد.

قال : رسول الله ﷺ : **(هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)** : هذا الذى كان أمامكم؛ جاء سائلا ليعلمكم شعائر دينكم وقواعد إيمانكم، إنه جبريل عليه السلام، وجاءكم مختفيا فى هذه الصورة حتى لا ترهبوه فى المجلس فتضيع عليكم الفائدة من أسئلته التى شملت أمور الدين كله

فهذه الرواية: رواها مسلم رضى الله عنه فى صحيحه فى كتاب الإيمان عن عمر رضى الله عنه ورواها أيضًا هو والبخارى رضى الله عنه فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أثابهما الله وجزاهما عن سنة رسول الله ﷺ خير الجزاء.

يقول الحافظ ابن حجر الهيثمى رحمه الله تعالى فى فتح المبين:

«رواه مسلم فهو من أفراده. ولم يخرج البخارى عن عمر فيه شيئًا. وإنما خرج هو ومسلم عن أبى هريرة نحوه وهو حديث متفق على عظم موقعه وكثرة أحكامه لاشتماله على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه. ومتشعبة منه. فهو جامع لطاعات الجوارح والقلب أصولا وفروعا. حقيق بأن يسمى أم السنة كما سميت الفاتحة أم القرآن لتضمنها جمل معانيه». أسأل الله تعالى أن يحيينا على الإسلام والسنة وأن يميتنا على الإسلام والسنة، وأن يجعلنا فى مستقر رحمته. ويشملنا بعطفه وحبه إنه كريم وهاب سميع مجيب والحمد لله رب العالمين.

* * *

فقه الحديث: يستفاد من الحديث الأحكام والتوجيهات الشرعية التالية:

١- ندب تنظيف الثياب وتحسين الهيئة وتطييب الرائحة؛ عند دخول المسجد أو مكان تلقى العلم؛ وخاصة للمعلم والمتعلم، وكذلك عند حضور مجالس القوم.

٢- استحباب لبس الثياب البيض عند دخول المساجد؛ عدا أيام العيدين إذا كان عند الشخص أرفع منها. لأنهما يوما زينة وإظهار للنعمة.

٣- مشروعية طلب الإذن بالجلوس فى المجلس بعد إلقاء السلام من كبير القوم. وجواز إلقاء السلام على الواحد بلغة الجمع «السلام عليكم».

٤- ندب الجلوس بالقرب من العالم، لإمكان تلقى العلم منه وحتى لا يفوته شئ ما دام ذلك ممكنا.

٥- جواز تخصيص مكان لدروس العلم والقرآن بالمسجد أو بإقامة بناء مخصص لذلك

٦- جواز تخصيص مكان مرتفع للأستاذ المعلم ليراه كل الحاضرين. وليصل صوته للجميع.

٧- حرمة نداء الرسول ﷺ باسمه. إلا للملائكة فقط على خلاف فيه.

٨- التزام الأدب فى جواره ﷺ حيا وميتا. وعند ذكره. أو مذاكرة القرآن والحديث والعلم الشريف.

٩- يجوز للملائكة النزول فى صور مختلفة للتعمية، أو للإشفاق على الناس.

١٠- جواز نداء العالم أو الكبير باسمه ولو من طالب العلم؛ إن لم يعلم كراهته لذلك أو لم يكن يقصد بندائه الوضع والحط من قدره. وذلك لمخالفته ما اعتيد عليه من النداء لهؤلاء بالألقاب العظيمة. التى تبين عن مهابتهم واحترامهم وإظهار الأدب معهم.

١١- قياسا على الحكم بكراهة نداء العالم باسمه. فإنه يكون أشد كراهة وأقرب إلى الحرام نداء الوالدين باسمهما لمكانتهما الرفيعة التى وضعهما الله فيها بالنسبة للأبناء.

١٢- يجوز لمن عنده علم بمعرفة الأحكام الشرعية. أن يسأل العالم فى حضور من يجهل ذلك ليعلمه مسائل الدين وأحكامه. مادام ذلك خافيا عليهم أو على بعضهم.

١٣- يجب على المسلم أن يكون على معرفة كاملة بقواعد الإسلام وأموره؛ والحلال والحرام وما بينهما من المشتبهات ما دام ذلك ممكنا.

١٤- الإسلام بمعنى الدين؛ مكون من ثلاث مراتب هى: الإسلام. والإيمان، والإحسان.

١٥- أركان الإسلام (المرتبة الأولى) خمسة: الشهادتان. إقام الصلاة. إيتاء الزكاة؛ صوم رمضان، حج البيت من استطاع إليه سبيلا.

١٦- يجب النطق بالشهادتين لمن أراد الدخول فى الإسلام من الكافرين ولا تكفى إحداهما؛ ولا يشترط زيادة البراءة من كل دين يخالف دين الإسلام إلا لمن أنكر نبوة محمد ﷺ وأصل رسالته أو أنكر عموميتها وشمولها للعرب وغير العرب. أو الإنس دون الجن.

ولا يصح الإيمان بالنبى ﷺ قبل الإيمان بالله أولا؛ كما لا يشترط الموالاة بينهما؛ ولا نطقهما بالعربية.

١٧- الحكم بالكفر الصريح على كل من أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة وثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة؛ كمن ينكر فرضية الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج وغيرها من الفرائض، أو استحل حراما أو حرم حلالا، وهو بذلك كله عامد عالم بالتحريم وحر مختار.

١٨- الإيمان تصديق بالقلب لكل ما بلغه النبى ﷺ عن ربه. ويشترط فيه الإقرار باللسان لإجراء الأحكام الشرعية.

فيجب الإيمان إجمالا فيما ورد إجمالا؛ وتفصيلا فيما ورد تفصيلا؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها؛ كالإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

١٩- اعتقاد وحدانية الله عز وجل يقتضى نفى الشريك والشبيه والمماثل والكفء. وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، لأنه المستحق لها وحده جل شأنه، فلا يتوجه بأى نوع مما يستحق لله تعالى لأى مخلوق مهما كانت رتبته؛ وذلك كالاستعانة والاستغاثة والدعاء والرجاء والخوف وطلب المغفرة والإنابة والرجوع والخشوع والذبح والنذر

٢٠ وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. لا يشترط فيه أن يكون عن نظر واستدلال بل يكفى اعتقاد جازم بذلك.

إذ المختار الذى عليه السلف وأئمة الفتوى من الخلف وعامة الفقهاء. صحه إيمان المقلد؛ وقد كذب الإمام القشيرى رحمه الله تعالى من قال إن الإمام الأشعرى رضى الله عنه يرد إيمان المقلد. لأن الثابت قد قبلوا إيمان العوام من أجلاف العرب ومن العجم ولم يسألوا واحدا منهم عن دليل تصديقه.

٢١- الذى عليه أهل الحق: أن الإيمان والإسلام متلازمان؛ ولا ينفك أحدهما عن الآخر.

٢٢- ضرورة مراقبة العبد لله عز وجل فى عبادته وفى سائر أعماله؛ ففى ذلك كمال الخشوع وتمام العبادة مما يبعث على الإخلاص فى جميع الأعمال الظاهرة والباطنة.

٢٣- وجوب الإيمان بأن الله تعالى مطلع على عباده فى كل أحوالهم الظاهرة والباطنة؛ لأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة.

٢٤- رؤية الله تعالى فى الآخرة لمن يشاء من عباده ثابتة بالكتاب والسنة خلافا لمن أنكرها ورؤيته تعالى فى الدنيا ممكنة عقلا بدليل طلب سيدنا موسى عليه السلام ذلك؛ ولو لم تكن ممكنة ما سألها نبى مرسل؛ وهو ما لا يجوز عليه أن يطلب غير الممكن.

٢٥- المسلم مكلف بالقيام بأداء كافة الأعمال الشرعية الملكف بها منذ بلوغه سن التكليف حتى خروج روحه. ولا تسقط عنه التكاليف مهما كان قربه لله عز وجل كما يرى بعض الزنادقة من الباطنية، وقد رخص فى بعض الأمور لأصحاب الأعذار الشرعية بأمر شرعى، كما هو مذكور فى كتب الفقه.

٢٦- من قال لا أدرى فقد أفتى، وصدقت مقالته؛ إذا لم يكن عنده علم.

٢٧- زمن بدء يوم القيامة علمه عند الله تعالى. ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

أما من قالوا: إن الله تعالى أعلمه نبيه ﷺ قبل موته وأمره بكتمانه. فغير صحيح لعدم قيام الدليل الصحيح على ذلك.

٢٨- عذاب القبر ونعيمه ثابت بالأدلة الصحيحة.

٢٩- إن أمارات الساعة وأشراطها بدأ وقوعها ببعثة النبى ﷺ. لأنه الخاتم فلا نبى بعده.

٣٠- يجوز لمن يتولى الإجابة، أن يكتفى فى إجابته بذكر الأعم الشامل وإهمال غيره من التفصيلات التى تندرج تحته؛ إلا إذا علم أن السائل لا يكفيه الجواب بالأعم الشامل.

٣١- يجوز للمعلم أن ينوه بذكر المتفوق من تلاميذه. وكذلك بيان أهل الفضل فى الدين ليكونوا مثلا لأقرانهم.

٣٢- بيان فضل أصحاب النبى ﷺ؛ الذين أحجموا عن السؤال عندما رأوا فى ذلك بعض الضيق للنبى ﷺ. فلما وقع منهم ذلك؛ أكرمهم الله تعالى. فأنزل جبريل عليه السلام ليسأل رسول الله ﷺ بما يشفى غليلهم ويسد جوعتهم ويعلمهم دينهم.

٣٣- إن المعلم هو النبى ﷺ وليس جبريل عليه السلام. لأنه لم يكن إلا سائلا نيابة عن أصحاب رسول الله ﷺ.

* * *